أحجية إدمون عَمران المالح

رواية

أحجية إدمون عَمران المالح

محمد سعيد احجيوج



نوفل

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Ilona Wellmann / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-749-8
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-750-4

«ينبغي التيه ليتحقّق الوصول.»

عبد الفتّاح كيليطو

«مرّر رواية اليوم المقدّس إلى القائمة القصيرة وستحصل فورًا على شيك بعشرين ألف فرنك».

هل تصلح تلك المحادثة، تلك الرشوة، ذلك التهديد المخفي والمستتر بالإغراء، بدايةً لتلقيح بياض هذه الصفحات؟ لا أعرف. لكنّني لا أملك إلّا أن أبدأ بها، فلست أتذكّر شيئًا وليس في رأسي إلّا صداها مذ فتحت عينيّ.

حين فتحت عينيّ هذا الصباح، في هذه الغرفة الغريبة الساطعة البياض، وجدتني لا أتذكّر شيئًا. ما عرفت أين أنا ولا من أكون. كنت مستلقيًا على ظهري، حلقي جافّ، ودقّات قلبي المتسارعة تدفع رئتيّ سعيًا حثيثًا خلف كلّ ذرّة من ذرّات الأوكسجين في فضاء الغرفة. لم أستطع في البداية أن أحرّك جفنيّ. ضغطتهما بكامل العزم الممكن لجسدي المنهك حتى لا يتسرّب المزيد من الضوء إلى حدقتيّ. دفقة الضوء التي اخترقت عينيّ حين استيقظت أشعلت في رأسي الحرائق. كأنّ قنبلة انفجرت داخل رأسي. شعرت بالشظايا تتطاير في كلّ تجاويف جمجمتي. تردّدت بين عظام جمجمتي أصوات نواقيس ضخمة. نواقيس تتدلّى من أبراج قلاع نابتة في سهول شاسعة منبسطة

وقلاع متناثرة فوق قمم جبال سامقة، يتردّد صداها ويصطخب داخل رأسي. صدًى لو تردّد بين الأودية لفتّت الجبال.

ثمّة أيضًا ذلك الشعور القاتل بالغثيان. رغبة ملحة في إفراغ جوفي، الفارغ أصلًا، ولا قوّة لديّ لدفع عصارة معدتي إلى الصعود. إنّه الشعور المزمن والآثم بالرغبة في التقيّؤ التي تطلّ من حافّة الحلق وتبقى كامنة هناك، متردّدة، لا هي تقفز إلى الأمام ولا هي تعود إلى الخلف. منبطحة على بطنها، تطلّ من الحافّة بطرف عينيها، كأنّها تعاني رهابَ الأماكن المرتفعة، تخشى السقوط. لا أتذكّر شيئًا، لكنّني، بشكل ما، أدرك أنّ نوبة الصداع هذه هي الأشدّ. إنّها أقوى نوبة صداع تجتاحني.

«سنقدّم لك عرضًا لا يمكنك رفضه. مرّر رواية...».

لا تزال العبارة تتردّد في رأسي بدرجات صدًى متفاوتة الطول. أتذكّر حضورًا ضبابيًا باهتًا للحلم. لست واثقًا في أنّه حلم. جالسًا في مطعم باريسي كنت. أو ربّما لم أكن أنا، ذلك الشابّ المفعم بالحياة. يجلس أمامي كهل في حوالى الخمسين من عمره، اسمه فرانز غولدشتاين. نعم أتذكّر، هذا اسمه. بشكل ما، أتذكّر أنّ فرانز كان غريبًا مثيرًا للرهبة. حاولت استعادة تفاصيل الذكرى، لكنّني لم أملك إلى أبوابها وصولًا. بدا آنذاك، أو هذا ما أشعر به الآن، أنّه عضو في المافيا أو أحد أفراد الموساد، أو شيء من هذا القبيل.

لا تزال تلك العبارة تطنّ في رأسي، وما زال شعوري الثقيل بالخواء يملأني. الفراغ التامّ. كأنّني قشرة خارجية مجوّفة لا شيء داخلها. لولا الحلم الذي يؤشّر إلى ذكرى قديمة لقلت أنّني ولدت الآن. تحديدًا، في اللحظة التي رمشت فيها أوّل مرّة بعد أن تدفّقت إلى عينيّ رماح الضوء لتشعل في رأسي الحرائق. بل لست واثقًا في أنّ ذلك الحلم شذرة من ماضيّ. لم يأتِ كما يجب أن تجيء الذكرى، إنّما

بدا أنّني أشاهده في شاشة أمام عينيّ، باردًا من دون أيّ إحساس، كأنّ تلك الذكرى ليست لي. لم أعشها ولم تطبع في نفسي شيئًا. لا مشاعر إلّا الظلال المتحرّكة أمامي. اكتنفتني مشاعر العزلة والوحدة. لا، ليست العزلة بل المنفى. فكّرت لحظة في أنّني، ربّما، لست شخصية حقيقية. لعلّي شخصية ابتكرها كاتبٌ ما على صفحات رواية لم تكتمل، وطوى عليها الدفاتر في عالم بديل من دون أن يكمل رسم تفاصيلها ولا بناء العالم الذي خلقه لها. ماذا لو أنّني كاتب أيضًا؟ يمكنني أن أكون، أنا أيضًا، أنا ذاتي، كاتبًا، ويمكنني أن أخلق ما أشاء من العوالم. ربّما يكون ذلك حلًّا لأتذكّر من أنا وما أفعل في هذه الغرفة الغريبة. الكتابة قد تكون حلًّا، لا لأن أتذكّر وحسب، بل ولأن أخلق نفسي من جديد. بل ماذا لو أنّ هذه رواية وأنا مجرّد شخصية في رواية؟

كان عليّ أن أفتح عينيّ لأعرف أين أنا. حاولتُ وتمرّدَت عليّ أعصاب الجفنين. كأنّ جسدي يعلن العصيان عليّ ليحمي ذاته. يرتجف الجفنان بحركات عصبية لكنّهما يأبيان الاستسلام لرغبتي. أشدّ أصابع كلتا يديّ في ما يبدو أنّها ملاءة السرير. أضغط الشفة على الشفة. أسخّر الدفقة الأخيرة من مخزون الإرادة لديّ وينفتح الجفنان أخيرًا. تقزّم بؤبؤا عينيّ بسرعة هربًا من الضوء الساطع الذي تدفّق إليهما. تهيّأت لأطلق صرخة ألم جرّاء السكاكين التي ستخترق دماغي لا محالة، لكنّ لا شيء من ذلك حدث. بقي صدى النواقيس يتردّد في تجاويف جمجمتي مرفقًا بهدير شلّال متدفّق من مكان ما إلى لا مكان. المكان غريب. غرفة بيضاء ساطعة الإضاءة. كلّ شيء أبيض. السرير والجدران والأرضية والمكتب والكرسي وحتى ملابسي. كذلك كرسي العجلات إلى يمين السرير. ما زال قلبي يدقّ بسرعة. لهثت وشرّعت فتحتي أنفي وشهقت ملاحقًا ذرّات الهواء. رمشت

بعينيّ مرّات عدّة. لا شيء تغيّر. الغرفة البيضاء ذاتها. الضوء الساطع نفسه. الصداع... لا، الصداع اختفى. تلاشى تمامًا كأنّه لم يكن، وفي تلك اللحظة عينها، حين انتبهت إلى اختفائه، دهمتني رغبة محمومة في الكتابة. ما عادت الكتابة مجرّد خاطرة عابرة، ووجدتني مسكونًا برغبة ملحّة في تسويد بياض الصفحات. أدركت تمامًا ما يجب أن أفعله، من دون أن أعي تمامًا مصدر تلك الرغبة ولا ذلك الإلحاح. اعتمدت على يديّ لأدفع ظهري إلى الوراء. استندت إلى ظهر السرير ألهث. ألقيت نظرة عابرة على يدي الشاحبة النحيفة البارزة العروق. جلد على عظم ليس إلّا. جاهدت لأدفع نصفي التحتاني الميت حتى حاذيت مقعد العجلات المتحرّك. ألقيت نفسي فوقه بجهد خرافي. دفعت العجلات نحو الطاولة الصغيرة وأمسكت القلم لأحرث هذه الصفحات البكر، وأنثر فيها بذور بقائي. محمومًا أحسستُني، تسكنني اللهفة ويدفعني الرعب من الفَناء الآتي.

انسلّت كلمة الفناء من تلقاء ذاتها، لكنّني حين توقّفت محاولًا استيعابها لم أجد شيئًا في ذاكرتي. تبخّر كلّ شيء. ما هذا الفناء؟ لا شيء من ذلك في ذاكرتي. أحسّ بأنّ دماغي قد تحوّل إلى إسفنجة مليئة بالثقوب. آلاف الخلايا ماتت وملايين الروابط العصبية تلاشت وتبخّرت معها أيّام كاملة، بل سنوات، من ذكرياتي. لا بل كلّ ذاكرتي.

وضعت سنّ القلم عند أوّل سطور الصفحة البيضاء، وتوقّفت. سيل الأفكار كان هادرًا وانتقاء البداية لم يكن سهلًا. أو لعلّه العكس تمامًا، البداية كانت سهلة جدًّا.

ليتني كنت أملك ترف أن أنتقي البداية التي أشتهي لهذه الحكاية. كأن أبدأ القصّة مثلًا، كما يقول القزم أوسكار صاحب الطبل الصفيح، من الوسط ثمّ أسير بها متقدّمًا إلى الأمام أو أعود إلى الخلف لأخلق ما أشاء من حيرة وارتباك. أو ربّما يمكنني أن أكون حداثيًّا،

أو بالأحرى ما بعد حداثي، وألغي كلّ الإشارات إلى الزمان والمكان، ثمّ أعلن أنّني قد حللت معضلة الزمكان. أو ربّما كنت سأتمادى وأقول أنّه ما عاد في الإمكان كتابة رواية، فقد قيل كلّ ما يمكن أن يقال، ثمّ أُخرج في غفلة، من قبّعتي السحرية، روايةً ستكون آخر الروايات العظيمة، لن يأتي أحد بعدي بأفضل منها. لو كنت أكتب رواية، لقلت أنّه ثمّة طرائق متعدّدة لقصّ هذه الحكاية التي يسودها الغموض ويدثّرها الجنون وتدفن فيها الأحلام تحت السماوات المكفهرّة بالكآبة. لكنّ هذه ليست رواية، إنّها حياتي التي لم أمتلك حرّية اختيار بدايتها.

عبارة فرانز هي كلّ ما يتردّد في رأسي وأنا في هذه الغرفة الغريبة. عليّ ترتيب أفكاري وتنظيم ذكرياتي. عليّ الاستسلام للرغبة المحمومة التي تدفع أصابعي لخطّ هذه الفقرات والإسراع قبل أن يصل التلف إلى باقي خلايا ذاكرتي، وإلّا سيكون الفناء مصيري. التداعي الحرّ. نعم، هكذا يسمّي فرويد الأمر. التداعي الحرّ للأفكار. نعم، أحتاج إلى أن أترك نفسي على سجيّتها وأحرّر أصابع يدي من سلطة وعيي حتى تخطّ على الصفحات كلّ ما يمكن أن تخطّه، مهما كان تافهًا، حتى يكشف العنصر الخفي، العنصر الصادم، عن نفسه، وسأعرف آنئذ ما هذه الغرفة العجيبة وكيف استيقظت بغتة هنا، والأهمّ من ذلك، سأعرف من أنا. أو هذا ما أتمنّاه.

في ذلك الصباح الخريفي، الذي يبدو بعيدًا جدًّا، اتّصل بي مسيو فرانز غولدشتاين، المحرّر الرئيس في دار النشر إديسيو دو سابل، ليدعوني إلى الغداء. لا غرابة في ذلك، لقاءاتنا تتكرّر بشكل دوري وكثيرًا ما يحضر لي طبعات أوّلية من روايات قيد النشر لأكتب عنها مراجعات في ملحق الكتب الذي أحرّره في جريدة لوموند. كما كان أحيانًا يلتمس رأيي في مخطوطات يعمل عليها مع كتّابها. لم

نكن صديقين بقدر ما كانت علاقتنا زمالة مهنية يطبعها بعض الودّ أو كثيره، أو في الأقلّ هذا ما كان يخيل إليّ. اقترح فرانز هذه المرّة مطعمًا غير مطعمنا المعتاد الذي كنّا نلتقي فيه دائمًا. كان حريًّا بي أن أتوقّع آنذاك أنّه يخطّط لأمر ما ولا يريد أن يرانا أحد معًا. كان جالسًا أمامي. هادئًا. جامد الملامح. مرّر المنديل على شفتيه بعد أن ارتشف رشفة أخرى من نبيذه، شبك أصابع يديه، ثمّ قال: «مسيو عَمران المالح، سنقدّم لك عرضًا لا يمكن رفضه. مرّر رواية اليوم المقدّس إلى القائمة القصيرة وستحصل فورًا على شيك بعشرين ألف فرنك، وعقدًا غير مسبوق لنشر روايتك الأولى».

جيّد، جيّد. اسمي إذًا هو عَمران المالح. اسم يهودي هو، ولا شكّ في أنّ فرانز غولدشتاين يهودي أيضًا. هو اسم ألماني، يمكنني الجزم بهذا. أمّا اسمي، فيشير إلى أنّ أصولي على الأرجح تعود إلى شمال أفريقيا، غالبًا المغرب. أعمل محرّرًا في جريدة لوموند. أتذكّر جيّدًا أنّها يومية فرنسية رفيعة السمعة ذائعة الصيت. حتى الآن أعرف أنّني صحافي، يهودي، مقيم في فرنسا، وصديقي فرانز، أو من يفترض أنّه صديقي، يخطّط لشيء ما غير اعتيادي. بداية جيّدة ونتيجة طيّبة لهذا التداعي الحرّ. يبدو أنّ فرويد هذا كان عبقريًّا. حتى الاستطراد الذي فرض نفسه على هذه الفقرة التي أكتبها الآن يبدو جيّدًا، ومعزّزًا الذاكرة. التكرار مفيد للحفظ والتذكّر. هناك تقنية تسمّى التكرار المتباعد تسهل استرجاع المعلومات والذكريات، تقوّي الذاكرة، وتقلّل احتمالات النسيان. هي في الأصل طريقة تعليمية، ومناسبة خصوصًا لتعلّم اللغات، لكن يمكن اعتمادها لتذكّر أيّ شيء، حتى ذكريات الطفولة، إذا كان لديك الصبر الكافي لاسترجاعها وتلقينها لنفسك كأنّها رصيد معرفي يتوقّف عليه استقرار العالم. لكن، وطبعًا، ككلّ شيء جميل في هذه الحياة، ستجد دائمًا

من يستغلّ الاختراعات الخيّرة في أعمال الشرّ. خبراء التسويق، مثلًا، انتبهوا إلى هذه التقنية التعليمية وطبّقوها على الإعلانات التي يرمونها في وجوهنا في كلّ مكان. انتبه أولئك الخبراء إلى أنّ بث الإعلان نفسه بشكل متلاحق يأتي بنتيجة عكسية، وأنّ الأفضل هو بثّ الإعلان ذاته في فترات متباعدة تتّسع تباعًا حتى تترسّخ الروابط العصبية في الدماغ وتحفظ ذكرى الإعلان إلى الأبد. يعني عوضًا عن بثّ الإعلان نفسه بشكل كثيف يوميًّا طيلة أسبوع، يُبَثّ الإعلان في البداية مرّتين فقط في اليوم مدّة ثلاثة أيّام، ثمّ مرّة واحدة في اليوم بضعة أيّام أخرى، ثمّ يومًا ويتوقّف يومين، ثمّ يُبَثّ مرّة في الأسبوع، وهكذا. بالميزانية نفسها، أو أقلّ، يصير المنتَج المعلن عنه مترسّخًا في ذاكرة الناس، ويبقى طافيًا على ضفاف الوعي فترة طويلة. لحسن الحظّ قلّة من خبراء التسويق تملك زمام هذه الطريقة.

توقّف قرعُ النواقيس في رأسي، ورمت الذاكرة، بعشوائيتها التي عليّ التعوّد عليها، ذكرى بعيدة جاءت محمولة على صوت طبول الحرب ونفير يوم كيبور. بثّ جيش الدفاع نداءاته لاستدعاء كامل قوّات الاحتياط. كانت الأنباء تقول: «المصريون يخترقون جدار بارليف، والسوريون على الحدود الشمالية.» الساعة كانت تشير إلى الثانية والنصف بعد زوال الشمس، وكان تاريخ اليوم السادس من أكتوبر 1973، العاشر من تشريه 5734. جاءت الهجمة العربية على حين غرّة وإسرائيل صائمة تصلّي احتفالًا بيوم الغفران. عادت الإذاعات للعمل في اليوم الذي تتوقّف كلّ الأنشطة في إسرائيل عادةً، وانطلق الرجال يهرولون خارج المعابد استعدادًا للالتحاق بمراكزهم في الجيش.

كيف حدث هذا؟ ربّما المفاجأة لم تكن مباغتة تمامًا. في الأقلّ ليس بالنسبة إليّ. كنت أشعر بأنّ فخري بإسرائيل الذي عشّش

في وجداني، كما كلّ أطفال اليهود قبل ذلك بستّ سنوات في المغرب، قد بدأ يتلاشى منذ اليوم الأوّل لوصولي إلى أرض إسرائيل، حين وجدت نفسي في مدرسة دينية متزمّتة، ووجدت نفسي ملزمًا بأعمال الزراعة عوض المستقبل الذي كنت أتوقّعه، المستقبل الذي كنت أنتظره وآمله وأشتهيه، في عالم الأدب والصحافة. لقد كان واضحًا لكلّ ذي عين، أو في الأقلّ بالنسبة إليّ، أنّ إسرائيل أغرقت نفسها في أوهام التفوّق وتركت نفسها للفساد ينخرها طيلة ستّ سنوات حتى جاءت الضربة المباغتة التي كادت تقضي على دولة اليهود تمامًا، لولا أنّه، لحسن حظّ المتغطرسين المنشغلين بالصراع على السلطة في تلّ أبيب، الفساد ينخر في كلّ الدول العربية وفي كلّ دواليب الحكم فيها، أكثر ممّا هو في أرض الميعاد.

لم تكن قد مرّت عليّ سوى بضعة أشهر مذ أكملت فترة الخدمة العسكرية الإلزامية حين جاء نفير يوم كيبور مستدعيًا كلّ الجنود. في وهلة، فكّرت في تجاهل النداء. لا أعرف لما فكّرت في ذلك، لكنّني عرفت يقينًا أنّني لن أستطيع تحمّل تبعات ذلك التجاهل. تهمة الخيانة العظمى ستكون جاهزة لإعدامي. غالبت أفكاري الجامحة ورميتها جانبًا، وتركت هوّيتي الإسرائيلية تتسلّم زمام قيادتي وتدفعني نحو إخراج بذلتي العسكرية، والجري سريعًا نحو ما كنت أعرف بشكل ضبابي أنّه مصيري المحتوم. المصير الذي حذّرتني منه الخالة ميمونة حين زارتني في منامي الليلة التي سبقت مغادرتي المغرب. نظرت إليّ طويلًا، حتى سالت دمعتان على خدّيها. مسحت دمعتيها وربّتت، بأصابعها المبتلّة، خدّي الأيمن. رجتني ألّا أهاجر، أن أبقى في المغرب، وإلّا فإنّني سأجد نفسي، أكثر من مرّة، في خضمّ حروب لا ناقة لي فيها ولا جمل. استيقظتُ ولمست الخدّ حيث ربّتت كفّ الخالة ميمونة. كان الخدّ دافئًا فشعرت بالحنين

إلى جارتنا ميمونة التي كنت سمعت أنّها اختفت بغتة، مباشرة بعد انتقال عائلتي من مكناس إلى الدار البيضاء. حالات اختفاء اليهود المباغتة كانت قد غدت مألوفة، وهي تعني أنّ المختفي قد هاجر، غالبًا إلى إسرائيل، وإن كان ميسور الحال، فإلى فرنسا. غير أنّني كنت أعرف يقينًا أنّ الخالة ميمونة تعتبر المغرب وطنها الذي لا تعرف غيره، ولا يمكن أن تكون قد هاجرت إلى أرض الميعاد. عرفت أنّ لاختفائها سرًّا، خصوصًا أنّني لم أنس يومًا الحكاية القديمة التي تُحكى عنها.

تعود الحكاية إلى أربعين عامًا مضت قبل اختفائها الثاني، حين، في اليوم الذي تفتّحت فيه زهرة ربيعها العشرين، اختفت. كاد أبوها يجنّ بعد أن بحث عنها، وبحث معه كلّ رجال الملاح، أشهرًا من دون جدوى. قيل أنّ شابًّا مسلمًا غرّر بها وأوقعها في شباكه ثمّ تركها. بعض الشبّان أقسموا على ذلك، لكن تبيّن لاحقًا أنّهم كذبوا لتصفية حساب شخصي لديهم مع ذلك الشابّ. يقال أنّ والد ميمونة وبعض الرجال كمنوا للشابّ وأتوا به معصوب العينين مكبّل الأطراف إلى كوخ مهجور في المقبرة عند أطراف الملاح. اعترف الشابّ بكلّ ذنوبه وخطاياه، بعد أن كُسرت مفاصل أصابع يده وخلع أحد أضراسه، لكنّه لم يكن يعرف شيئًا عن الشابّة المختفية ميمونة. في النهاية، استسلم الأب لقضاء الربّ وتفرّغ لخدمة المعبد والدعاء ليل نهار للربّ أن يعيد إليه ابنته، التي كانت تؤنس وحدته مُذ رحلت زوجته يوم وضعِها، كما أعاد من قبل يوسف إلى يعقوب. واستجاب الربّ بعد عام. بعد تمام السنة على اختفائها عادت ميمونة، ولم تكن وحدها. عادت تحمل بين ذراعيها رضيعًا في شهوره الأولى. بُهت كلّ من رآها، وفقد أبوها قدرته على الوقوف حين جاء يهرول لاستقبالها بعد أن سمع خبر عودتها ورأى الرضيع بين ذراعيها.

لم يكن سهلًا أن يصدّق أحد حكاية ميمونة. قالت أنّها سمعت ذات ليلة الربّ يناديها فخرجت إلى الصحارى والقفار حتى وصلت إلى كهف في جبل ناء، وهناك استقرّت تصلّي ليل نهار وتتلقّى عطايا الربّ، إلى أن سمعت ذات فجر بكاء طفل، فخرجت لتجد رضيعًا في لفّة عند باب الكهف. حملته، وبتلقائية فطرية، ألقمته ثديها البكر، ورأت اللبن يتدفّق إلى فم الرضيع. ابتسمت وعرفت أنّ موعد عودتها قد حان.

«عَمران»، قالت ميمونة للجموع المحيطة بها تستمع لحكايتها، وأكّدت بقامة شامخة: «اسمه عمران. إنّه ابني. ابن الصحراء. إنّه ابن الربّ». لم يتحمّل الأب المزيد وأرسل كفّه إلى وجه ابنته. أقسم الكثيرون إنّ صوت الصفعة بدا أنّه صوت الرعد، وأقسم آخرون إنّهم شعروا بالأرض تهتزّ تحت أقدامهم، لكنّ ميمونة لم تهتزّ قيد أنملة. فقط غطاء رأسها انفلت وانزلق، وآنذاك بُهت الجمع مجدّدًا. هذه المرّة أمام بياض شعرها الناصع. يعرف الجميع أنّ شعر ميمونة حريري أسود فاحم كان يتغزّل به كلّ شباب الملاح. لكنّه صار الآن أبيضَ تمامًا. أبيضَ كالثلج. فكّر البعض في أنّ الخطيئة لا يمكن أن يكون لونها أبيض، وتساءل آخرون أيّ هول شاهدته المسكينة ميمونة.

لم يجرؤ أحد على تصديق حكاية ميمونة علنًا. رفض الأب استقبالها وأقسم أن يحرق كلّ بيت في الملاح يقبل بها. خرجت ميمونة بالشموخ ذاته الذي أتت به، وعُرِف لاحقًا أنّ شيخًا مسلمًا استقبلها في غرفة خارجية ملحقة ببيته، واشتغلت لديه خادمة تقوم بأمور البيت. أمّا أبوها فتوقّف عن خدمة المعبد وتوقّف عن دعوة ربّ إسرائيل، وعثروا عليه ذات صباح، بعد أشهر، في خندق لتصريف الفضلات، ورائحة الخمر في فمه تغطّي رائحة الفضلات على ملابسه. آنذاك، عادت ميمونة إلى بيت أبيها. في البداية، كان الكلّ

يتهرّب منها، ثمّ بدأت بعض الجارات المتقدّمات في العمر يشفقن عليها، ثمّ صار الجميع يتقرّب منها، نساء ورجالًا، بعد أن عرفوا بركاتها وقدراتها الشفائية. قيل أنّ أناملها لا تلمس جسدًا عليلًا إلّا وقام صاحبه معافًى صحيحًا سليمًا. قيل أنّ أناملها لا تمسّد شعر عذراء إلّا جاءها خاطب في اليوم التالي. قيل أنّها لا تلمس بطن عاقر إلّا وجاءها الوحم في الشهر ذاته.

ثمّ انكشف السرّ يوم همس حاخام مكناس في أذنها بكلمات ما كان يجب أن يهمس بها. فالأمر كان يجب أن يبقى سرًّا كما تنصّ التعاليم، غير أنّ حماسة الحاخام كانت أكبر من حرصه. همس لها بأنّها واحدة من الورعين الستّة والثلاثين.

لم تفهم الخالة ميمونة شيئًا في البداية. ثمّ بحثت وتقصّت وعرفت. عرفت أنّ بعض الطوائف اليهودية، وأبرزهم طائفة الحاسيديم الصوفية، تؤمن بوجود ستّة وثلاثين شخصًا بارًّا صالحًا يتمثّل دورهم في الحياة في تبرير أفعال الجنس البشري وأهدافه في نظر الربّ. هوّيتهم غير معروفة ويجب أن يبقى أمرهم سرًّا. في حالة اختفاء ولو واحد منهم فإنّ استقرار العالم يتهدّد وتأتي القيامة. في بعض المعتقدات، يملك هؤلاء الصالحون قوى غامضة تمكّنهم من حماية اليهود من الكوارث التي تحيط بهم. لكن في معتقدات أخرى أولئك الأفراد أنفسهم لا يعرفون أنّهم من الأبرار الأكثر ورعًا، لذلك، تقول التعاليم، أنّه على كلّ يهودي أن يتصرّف كأنّه واحد منهم. أن يتصرّف كأنّه صالح بارّ ورع يقف استقرار العالم كلّه على صلاحه الشخصي.

بدأت الخالة تكتشف لديها، مع مرور السنوات، قدرات لا تتوفّر للأشخاص العاديين. تجاوزت شفاء المرضى إلى استشراف المستقبل والسفر عبر العوالم. رأت الخالة ميمونة في أحد أحلامها، أو أسفارها عبر العوالم، فما كان في مقدورها دائمًا التمييز بين

الاثنين، غرق السفينة إيجوز في رحلتها الثالثة عشرة، وارتعبت من المصير المهول الذي سيعانيه الغرقى، فبدأت رحلتها الطويلة لتلحق بالسفينة قبل إبحارها. سافرت من مكناس إلى الدار البيضاء ومنها إلى طنجة ثمّ إلى الحسيمة، متتبّعة طريق وكالة الهجرة، لكنّ لا أحد من الرجال سيأخذ كلامها مأخذ الجدّ، وستغرق السفينة تاركة ثقبًا كبيرًا في قلبها.

لقد رأت. رأت كلّ شيء، غير أنّها لُعنت كما لُعنت من قبل كاساندرا، ابنة ملك طروادة التي منحها الإله أبولو عطيّة التنبّؤ ثمّ حكم عليها حين رفضته بألّا يصدّق نبوءتها أحد. سترى الخالة ميمونة وستلقي تنبّؤاتها لكن لا أحد سيصدّق. لا أحد، على امتداد خطّ الهجرة من مكناس إلى الحسيمة، صدّق كلامها. لا أحد صدّق أنّ السفينة ستغرق. قيل أنّها كافرة بإسرائيل تريد ثني اليهود عن أرض الميعاد. لا أحد صدّقها، وغرقت السفينة، وبقيت الملعونة تعاتب الربّ على النعمة الممنوحة إليها والتي ليست إلّا لعنة طالما أنّ لا أحد يريد أن يصدّقها.

في تلك الليلة، العاشر من يناير السنة الحادية والستين بعد المئة التاسعة، كانت الخالة ميمونة راكعة وسط برك المياه ورائحة السمك، في المرفأ، تشبك أصابع يديها بين فخذيها وتبكي وتشهق مناجية ربّها إلوهيم أن يتعطّف على الأطفال العشرين المتشبّثين بتلابيب أمّهاتهم تحت سطح السفينة، وأن ينقذهم وينقذ كلّ ركّاب السفينة من الغرق. اعتقدت الخالة ميمونة، منذ اكتشافها المذهل بأنّها واحدة من الورعين الستّة والثلاثين الذين يقف استقرار العالم على أكتافهم، أنّها تملك القوّة للتغيير، القوّة لإحداث التغيير الإيجابي في العالم، القوّة لتصحيح الأخطاء الكبرى والحفاظ على استقرار حياة الإنسانية. لكنّها في تلك الليلة الباردة، صلّت كثيرًا، وبكت كثيرًا،

ورجت إلوهيم كثيرًا، من دون فائدة. استعطفت حتى بحّ صوتها وبكت حتى جفّت مدامعها ولم يبق أمامها في النهاية إلّا أن تعرض روحها خالصة قربانًا عن الأطفال في جوف السفينة، لكنّ ربّ إسرائيل صمّ أذنيه عن صلواتها، وشاءت حكمته أن تغرق السفينة. لم تتقبّل الخالة ميمونة عزوف الربّ عن استجدائها فكفكفت دموعها وانقلبت على عقبيها، مصرّة على أنّها ستلقي خلف ظهرها تعاليم التوراة، كلّ التعاليم، وتتخلّى عن كونها واحدة من الصالحين الحاملين أنوارَ القداسة الربّانية.

أخبرتني بذلك خلال إحدى زياراتها التالية لأحلامي. زيارتها لي قبل هجرتي لم تكن الزيارة الوحيدة. اختفت سنوات ثمّ تكرّرت الزيارات لاحقًا. أعرف ذلك من دون أن أتذكّر تلك الزيارات تحديدًا. إلّا أنّني أثق في أنّ هذا التداعي الحرّ للأفكار سيقودني، عاجلًا أم آجلًا، إليها.

«سنقدّم لك عرضًا لا يمكن رفضه...» لم تكن تلك بداية المحادثة للقائي ذلك مع فرانز.

سبقني فرانز يومذاك، ودائمًا كنت أصل قبله. دائمًا أصل قبل الموعد. لم تكن شوارع باريس في بداية الثمانينيّات مكتظّة كما صارت لاحقًا. جلست وبدأنا المجاملات المعتادة، ريثما يصل طعام الغداء. تجاذبنا أطراف أحاديث موجزة متنوّعة عن جديد الموسم الثقافي وأحدث إصدارات دور النشر الفرنسية. ثمّ صمت فرانز بغتة وظهر الوجوم على وجهه، كأنّه تذكّر شيئًا ما. رفع حقيبته وأخرج منها كتابًا وضعه أمامي. كان مجلّدًا قديمًا، كبير الحجم، عنوانه حكايات أمازيغ المغرب. كنت قرأت مراجعة صحافية موجزة عنه منذ فترة. هو مجموعة من الحكايات الشعبية الأمازيغية المغربية جمعها إميل لاوست، ونشرها في العام 1949. زمّ فرانز شفتيه. «افتح الكتاب على

أيّ صفحة عشوائية»، قال وهو يحرّك يده بشيء من العصبية. «اقرأ لي الحكاية بصوت مرتفع».

فعلت ما قال من دون أن أفهم سرّ طلبه. فتحت الكتاب فوجدت أمامي حكاية «الملك اليهودي وسيدي سعيد أكيرّاموش». تنفّست بعمق وبدأت القراءة:

كان في الماضي ملك لليهود يزاول السحر. زار يومًا مدينة فاس، توقّف بالقرب من جامع القرويين، وبعدما ارتفع في السماء، جلس على فرو خروف كان بمثابة سجّادة، ومن هناك، من السماء، أخذ يبول على الطلبة، الذين كانوا يذهبون إلى الصلاة، واضعًا إيّاهم في أسوأ حالة من النجاسة، فرفعوا شكواهم إلى القاضي: «هذا ما يفعله لنا هذا اليهودي. ينجّسنا بقذارته، يوم الجمعة، عندما نذهب للصلاة».

استدعى القاضي مستشاريه. تساءل هؤلاء: «من يستطيع أن يفعل أيّ شيء ضده؟»، وخاطبوا اليهودي:

– لماذا تتصرّف هكذا؟

قال لهم:

– انظروا، إذا كان هناك أيّ شخص منكم يستطيع أن يفعل الشيء نفسه، فهو ملك أو ساحر.

تشاوروا ولم يجدوا شيئًا للردّ عليه، وعندذاك قال أحدهم للقاضي:

– يوجد في سوس رجل وليّ خبير في السحر أكثر من هذا اليهودي. فلنرسل في طلبه.

جاء وليّنا وخاطب اليهودي وأمره بالنزول.

قال اليهودي:

– لا، ماذا في وسعك أن تفعل يا رثّ الثياب؟

– إذًا، ترفض أن تنزل؟

– نعم.

التفت الوليّ إلى القاضي وسأله:

– بأيّ عقاب تريدون الحكم عليه؟

قال القاضي:

– ما يبدو لك حكمًا جيّدًا.

وقال الأشخاص الحاضرون، كبارًا وصغارًا: «افعل ما يحلو لك».

صرخ الوليّ:

– إذًا، سوف تتحوّل إلى لحم مفروم في السماء.

نظر الناس إلى بعضهم بعضًا وأعلنوا عن رضاهم. كتب الوليّ سحرًا على ورقتين، إحداهما تمثّل حجر رحى طاحونة مستديرة، والأخرى تمثّل طاحونة طائرة، ورمى بهما في الهواء. حلّقت الورقتان بعيدًا والتقتا فوق اليهودي. فصاح هذا الأخير:

– أريد أن أنزل.

ردّ عليه الوليّ:

– لا، لن تنزل إلّا لحمًا مفرومًا.

ما كدت أنتهي حتى ضرب فرانز يده على الطاولة بعنف. ليس من عادته أن يفقد أعصابه هكذا.

«ما هذا الافتراء الطفولي السخيف؟ لماذا يكرهنا العرب إلى هذه الدرجة، يسخرون منّا وينعتوننا بصفات ذميمة كهذه...».

قطع فرانز كلامه، حين جاء النادل بطلبات الغداء، وأخرج هواء رئتيه بزفرة قوية، ثمّ انشغل بتأمّل العابرين في الشارع عبر النافذة حتى وضع النادل كلّ الأطباق وذهب. استدار بوجهه إليّ وقطّب

جبهته وضيّق عينيه: «أخبرني يا عمران، أنت عشت سنوات طفولتك في المغرب، لماذا يكرهوننا؟».

يا له من سؤال. تلعثمت ولم أجد جوابًا شافيًا. هل يكره العرب، والمغاربة تحديدًا، اليهود؟

في الحقيقة، خلال سنوات طفولتي في مدينة مكناس ثمّ في الدار البيضاء، لم أصادف حالات يمكنني تصنيفها بشكل مطلق بأنّها كراهية موجّهة من المغاربة المسلمين نحونا نحن اليهود. لكن بصراحة، القصّة التي قرأتها مقزّزة. تصفّحت الكتاب سريعًا ووجدت مقاطع من حكايات أخرى تنتقص قدر اليهود. هي قصص أمازيغية وليست عربية. لكن، لو شئنا الصدق، مثلها كمثل حكاياتٍ يزخر بها التراث العالمي. لدى العرب والأمازيغ والروس والألمان والهنود، وكلّ شعوب العالم. لمَ كلّ هذه الكراهية؟ لا أذكر تحديدًا ما كان جوابي آنذاك. لكنّني أدرك الآن، في جلستي على كرسي العجلات هذا والمكتب الصغير في هذه الغرفة المشعّة بالبياض، أنّ الموضوع معقّد جدًّا. أعتقد أنّني قلت آنذاك كلامًا غامضًا مرتبكًا من قبيل أنّ المغاربة لا يكرهون اليهود كأفراد. المسلمون في معظمهم، في المدن حيث وجودنا، لديهم أصدقاء يهود. الجميع يتعاملون مع التجّار والحِرفيين اليهود. لكنّهم يكرهون، أو بالأحرى يتخوّفون، من اليهود كجماعة، كعرق. هناك نوع من انعدام الثقة في اليهود مردّه، في اعتقادهم، إلى أنّه ما اجتمع يهوديان إلّا كان التآمر ثالثهما. أيّ لقاء بين يهود هو اجتماع لنسج المؤامرات وحياكة الخطط للسيطرة على العالم. بالنسبة إلى المسلمين عدم الثقة في اليهود تعود إلى بداية ظهور الإسلام. يقولون في تاريخهم (الذي لا يمكنني التحقّق من صدقيته) إنّ الغدر كان سمة متأصّلة لدى يهود يثرب وقد حاولوا أكثر من مرّة اغتيال نبي الإسلام. وفي العصر الحالي، ازداد الأمر

سوءًا مع قيام دولة إسرائيل في أرض الميعاد وتشريد الفلسطينيين. كنت يافعًا آنذاك ولم يكن لديّ الإدراك الذي لديّ الآن، رغم أنّني فقدت ذاكرتي التي تمثّل مجموع إدراكي. جزء كبير من المشكلة يعود إلى السياسة. إلى رجال السياسة، وأيضًا إلى رجال الدين، الذين يرتقون في نجاحهم متسلّقين سلّم الكراهية التي يبثّونها وسط الناس لشيطنة طرف وإلهاء الطرف الآخر بعدوّ وهمي. أتذكّر أنّني كنت، قبل مغادرتي إسرائيل، أشفق على الفلسطينيين وأتفهّم حقّهم في الدفاع عن أرضهم، وفي الوقت نفسه كنت أعتبر إسرائيل وطني وكنت مستعدًّا للدفاع عنها أمام الجيوش العربية. أمّا الآن، أمام هذه الصفحات البيض التي يتحرّك عليها قلمي بسلاسة التداعي الحرّ، فأجد موقفي انعكس. ما عدت متعاطفًا مع الفلسطينيين (كيف أتعاطف مع بقية شعب يحارب نفسه لأجل مقعد حكم وهمي؟) وما عدت أعتبر إسرائيل وطني ولا أرى حاجة إلى وطن خاصّ لليهود. لكن في الوقت عينه أتفهّم حقّ السابرا، اليهود الذين ولدوا في إسرائيل، في أن تكون الأرض التي هم عليها وطنًا لهم، سواء سمّيناها إسرائيل أم فلسطين. لا ذنب لهم في أن تسحب منهم أرض ولدوا عليها، الأرض الوحيدة التي يعرفون، فقط لأنّ آباءهم استولوا عليها من قبل. كما أنّه من حقّ العائلات الفلسطينية التي طردت من بيوتها واغتصبت أراضيها أن تعود إلى أشجار برتقالها الحزينة، إلى شتلات الزيتون التي تنتظر حبّ من يسقيها وإلى الباحات خلف البيوت التي تشتاق إلى لثغات الأطفال وتسابق الصبيان وحكايات الجدّات عن الجنّ والسندباد وأميرات الحُسن وعن قناديل ملك الجليل.

لم يقتنع فرانز قطّ، بحديثي المتلعثم آنذاك وغير المرتّب. حرّك يده في الهواء حركات بلا معنى، أو كأنّه يبعد بقايا كلماتي المعلّقة

في الهواء، ثمّ غيّر الموضوع بشكل كامل وسألني بغتة: «سمعت أنّك تكتب رواية. صحيح؟».

لم أكن قد أخبرت إلّا أصدقاء محدّدين، وبشكل عابر ليس إلّا، أنّني أكتب رواية. لكن لدينا، مسيو غولدشتاين وأنا، الكثير من الأصدقاء المشتركين، لذا لم يكن من المستبعد أن يبلغه الخبر، خصوصًا مع طبيعة عملي واحتكاكي الدائم بالروائيين والمحرّرين.

أومأت برأسي أن نعم، ورفعت كتفيّ مؤكّدًا له أنّ لا شيء مميّز. ليس ثمّة ما يثير الاهتمام في الخبر.

أذكر أنّه وضع الشوكة والسكّين على الطبق، وشبك أصابع يديه على الطاولة، وأمال رأسه قليلًا نحوي، قبل أن يسأل: «ما موضوعها؟».

لا أحبّ هذا السؤال، والجميع يسألونه. ماذا يفترض أن أقول للسائل؟ هل ألخّص له الرواية؟ لو أنّ الرواية قابلة للتلخيص لما كانت هناك حاجة إلى كتابتها أصلًا.

التلخيص، كما الترجمة، خيانة. كلاهما يقوم على التأويل. تجد في الرواية أحداثًا وأفكارًا قابلة لتأويلات متعدّدة، مختلفة أو متكاملة، أو حتى متناقضة. حين ترتكب جرم التلخيص فإنّك تضطرّ، بوعي أو من دونه، إلى انتقاء تأويل واحد فقط. هذه خيانة للنصّ. الروايات العظيمة لا يمكن تلخيصها. العظمة تأتي من تعدّد مستويات القراءة والتأويل. التلخيص يقتل ذلك.

طال تحديق فرانز إلى وجهي، منتظرًا الجواب، فوجدتني مضطرًّا إلى أن أقول له أيّ شيء.

«هل تعرف إيجوز؟» بعد أن سألت انتبهت إلى أنّ السؤال ساذج ولم تكن ثمّة حاجة إليه. طبعًا، هو يعرف ما حدث للسفينة إيجوز. لا يوجد يهودي قريب من ضفّتي البحر المتوسط، أو في إسرائيل، لا يعرف قصّة السفينة.

كان قد هاجر خلال فترة السنوات السبع بين عامي 1948 و1955 ما يزيد على تسعين ألفًا من المغاربة اليهود إلى أرض إسرائيل؛ الأرض الموعودة والدولة الوليدة. وقبل ذلك، خلال السنوات القليلة التي سبقت تأسيس الدولة اليهودية، هاجر ستّون ألفًا. كانت فرنسا وإسبانيا، الدولتان المستعمرتان اللتان كانتا آنذاك تقتسمان التراب المغربي، تسهّلان هجرة اليهود إلى أرض الميعاد. لكن، بعد فترة قصيرة من إلغاء الحماية الفرنسية والحماية الإسبانية وإعلان الاستقلال، أغلقت المملكة باب الهجرة ومنعت اليهود من الهجرة إلى أرض الميعاد.

«طبعًا»، قال فرانز غولدشتاين. «من يجهل الجهود الجبّارة التي بذلها الموساد لإنقاذ اليهود المغاربة من عنصرية المسلمين وإعادتهم إلى إسرائيل!» زمّ شفتيه وتنهّد: «لكنّ الربّ شاء أن تغرق تلك السفينة».

أعترف بأنّني نزيل مستشفى أمراض نفسية و...

مهلًا، مهلًا. هذا اعتراف أوسكار ماتزيراث ولا شأن لي به. هل صارت ذاكرتي تخدعني إلى درجة أنّ ذكريات الآخرين صارت ذكرياتي؟ غامضة أمور الذاكرة، ولا يمكن الجزم بأيّ شيء في خصوصها. لا يمكننا الاعتماد على الذاكرة لتذكّر الحقيقة. إنّها مخادعة مليئة بالأوهام ولا يمكن الاعتماد عليها دائمًا. أو ربّما لا يمكن الاعتماد عليها البتّة. ما نحسب أنّنا نتذكّره هو في الحقيقة ما نعتقد أنّنا نتذكّره. نغيّر في التفاصيل ونحذف الحقائق وننسى الوجوه ونبعد إلى الأبد أحداثًا كاملة. الأسوأ أنّنا بارعون في تذكّر أحداث لم تقع أصلًا، والإشكالية ليست أنّنا ننسى بل إنّنا لا نعرف أنّنا ننسى. ليست الإشكالية أنّنا نحرّف الحقائق بل إنّنا نسجّلها في الذاكرة ابتداءً بشكل محرّف. من السهل خداع حاسّة البصر ومن السّهل أن

نخطئ في سماع الأحاديث، ومن السهل تسجيل مشاهد وأحاديث كما تلقّتها حواسّنا المحدودة وليس كما هي حقيقة. يا للهول. أكتب هذا كأنّ أحدًا غيري يستخدم يدي لكتابته. الآن، كيف سأصدّق أنّ هذا التداعي الحرّ للأفكار سيوصلني إلى برّ الأمان؟ كيف سأثق في أنّ ما أحسبه ذكرياتي هو حقًّا ذاكرتي؟ لو كنت راويًا في رواية، لقال ألف ناقد، رغم أنّه فعليًّا لا يوجد لدينا ألف ناقد (نحتاج إلى برنامج من اليونيسكو لحماية النقّاد من الانقراض)، إنّني راوٍ لا يُعتمد عليه، ولا صدقية له، ولسودّوا عشرات الصفحات حول أخطائي وأمراضي النفسية. لكنّ هذا لا يعنيني بالمرّة. ما الذي كنت أريد الاعتراف به؟ تذكّرت.

أعترف: كنت طيلة سنوات أعتبر نفسي يهوديًّا أوّلًا، يهوديًّا في المقام الأوّل، ومغربيًّا في المقام الثاني أو الثالث. الآن، صرت أكره عبارة «اليهود المغاربة» التي يكرّرها فرانز. ما الخطأ في قول «المغاربة اليهود»؟ كذلك، ثمّة مبالغة مفرطة في حديث فرانز عن عنصرية المسلمين. لا يمكن القفز مباشرة إلى الاستنتاج المخلّ بالدقّة، أنّ كلّ المسلمين يكرهون اليهود وقد كانوا دائمًا كذلك وسيبقون كذلك إلى الأبد. الحقيقة هي أنّه يوجد دائمًا مسلمون متعصّبون يلقون كلّ أسباب تخلّفهم على إسرائيل محوّلين كل كبتهم الديني إلى كراهية تجاه كلّ اليهود. كما ثمّة مسلمون جهلة، أكثرهم من عامّة الناس، يسهل سوقهم إلى تصديق أساطير عنصرية عن اليهود لا صحّة لها. وبالتأكيد، ثمّة نماذج من اليهود يغذّون تلكم الأساطير بخبثهم وخداعهم، وآخرين في إسرائيل يستثيرون كراهية كلّ المسلمين، بسبق إصرار أو من دونه. فضلًا عن ذلك، تحوّلت كراهية إسرائيل، ثمّ كراهية كلّ اليهود، إلى سياسة حكومية في البلدان العربية هدفها إلهاء الشعوب عن المطالبة بحقوقها

الأساسية الأهمّ والأولى. إسرائيل نفسها تفعل ذلك، ليحافظ الجنرالات والحاخامات على امتيازاتهم، من جهة، ومن جهة أخرى كي تحافظ إسرائيل على وجودها، عبر الظهور دوليًّا بمظهر الضحية التي تحتاج إلى دعم العالم وعبر شحن المواطنين محلّيًّا للتكاتف أمام العدوّ العربي والمسلم الذي يهدّدهم باستمرار.

عاد فرانز إلى الخلف وعقد ذراعيه على صدره متابعًا الحديث وعيناه تسبحان بعيدًا: «لكنّ تلك الخسارة كانت تضحية لا بدّ منها. نعم، خسرنا بضعَ أرواح عزيزة، إلّا أنّ فائدة الحادثة كانت عظيمة».

لم آخذ كلامه يومذاك مأخذًا جدّيًّا، لكن لاحقًا، بعد مراجعة الكثير من المصادر، قبيل خروجي من فرنسا (كتبت كلمة خروج وقد وقر في قلبي أنّني أقصد الطرد)، سيتأكّد لديّ خاطر مريب.

في اليوم التالي لغرق السفينة التي كان صاحبها يسمّيها الحوت قبل أن يسمّيها الموساد إيجوز، كتبت صحيفة هآرتز، يوم 11 يناير 1961، تعليقًا على الخبر يقول: «انتُشِلت اثنتا عشرة جثّة أخذت إلى ميناء الجزيرة الإسباني، وما زال البحث جاريًا عن اثنين وعشرين غريقًا آخر، في انتظار التعرّف إلى الغرقى وتحديد جنسيّاتهم. كان الغرقى الذين انتُشِلَت جثثهم في معظمهم يرتدون سترات أو أطواق النجاة. حتى الآن لم يصدر أيّ تعليق رسمي من حكومتنا عن سبب هذه الكارثة، لكنّ مصادر متعدّدة تشير إلى أنّ السبب الرئيس لغرق السفينة هو ربما الحمولة الزائدة». وتضيف الصحيفة: «إيجوز هي سفينة إسبانية صغيرة يؤجّرها الموساد لتهريب اليهود المغاربة سرًّا إلى جبل طارق ومن هناك إلى أرض إسرائيل. وقد تمكّن الموساد خلال اثنتي عشرة رحلة، على امتداد ثلاثة أشهر، من تهريب 334 يهوديًّا من المغرب. وهذا رقم ضئيل مقارنة بالتسعين ألف يهودي الذين خرجوا من المغرب خلال الفترة ما بين حرب

الاستقلال وحملة سيناء، قبل أن تقرّر السلطات المغربية، ابتداء من 27 سبتمبر 1956، إيقاف هذه الهجرات واعتبارها غير قانونية، بعدما رضخ الملك محمد الخامس لضغوط جمال عبد الناصر. يقودنا هذا إلى السؤال: هل تعمّد الموساد إغراق السفينة حتى تتمكّن غولدا مائير من استدرار شفقة المجتمع الدولي وعطفه ودفعه للضغط على المغرب لإعادة فتح باب الهجرة؟».

كنت أعتقد أنّ ذلك السؤال محض مبالغة، وكنت أفكّر في احتمالين، أحدهما أنّ الموساد لم يكن يولي العملية أهمّية كبيرة لمحدودية عوائدها، لذلك لم تكن ثمّة متابعة دقيقة لحالة السفينة ولم تكن تخضع لأعمال الصيانة بشكل ملائم، رغم تكرار عطبها. لكن لاحقًا ستطفو على السطح تسريبات من متعاونين سابقين مع الموساد وستتكرّر الشكوك وتتعاظم حول تعمّد الحكومة الإسرائيلية إغراق السفينة لاستدرار عطف المجتمع الدولي وإرغام المغرب على السماح بهجرة كلّ اليهود. وما حدث بعد أشهر قليلة، من حادث غرق السفينة إيجوز، يعزّز هذا الاحتمال. فبعد فترة قصيرة تُوّج الأمير الحسن ملكًا بعد وفاة والده محمد الخامس، وبدأت سلسلة من الاتّصالات السرّية بين أحد مستشاريه وبين إسرائيل، تُوجّت بتهجير مئة ألف من المغاربة اليهود إلى إسرائيل، عبر فرنسا وإيطاليا، مقابل دفع إسرائيل، بدعم من منظّمات يهودية أميركية، ما يعادل حاليًّا مئة مليون دولار أميركي ثمنًا لرؤوس اليهود. هكذا انخفض عدد اليهود في المغرب إلى أكثر من الألفين بقليل بعد أن كانوا قرابة نصف مليون، وصار اليهود من أصل مغربي ثاني أكبر جالية في إسرائيل. طبعًا، كانت التفاصيل آنذاك موسومة بـ «سرّي للغاية»، ولم أعلم ما أعلمه الآن إلّا بعد سنوات من ذلك، ولا أذكر الآن كيف عرفت، وما زلت مستغربًا ذاكرتي الانتقائية التي تتذكّر هذه الأرقام وتنسى أمورًا أخرى.

«إذًا، ماذا ستقول في الرواية عن إيجوز وعودة اليهود إلى أرض الميعاد؟» عاد فرانز للسؤال عن موضوع الرواية.

أخذت رشفة إضافية بحثًا عن دفء يغطّي الرجفة التي بدأت تسري في أوصالي. ابتلعت ريقي وتنهّدت.

أتذكّر الآن، ولم أخبر فرانز بذلك آنذاك، أنّ الفكرة الأساسية للرواية كانت غير الصيغة التي خرجت بها لاحقًا. كان عنوان الرواية «برزخ الحكايات» وكانت الشخصية المحورية امرأة متقدّمة في العمر أسميتها الخالة ميمونة، كشف لها الحاخام ذات يوم أنّها واحدة من الصالحين الورعين الذين يقف استقرار العالم على أكتافهم، وهي لذلك تمتلك قوى لا تتوفّر للناس العاديين. ستحكي الخالة في الرواية سلسلة حكايات عن أسفارها عبر العوالم. أتذكّر الآن بوضوح تامّ إحدى حكايات الرواية كما تحكيها الخالة ميمونة: «... قضت الحروب على الأخضر واليابس وعاد البشر إلى بهيمية سالف الأزمان. الأسلحة تطوّرت لديهم، حيث صارت انتقائية في ما تدمّر. تستهدف البشر وتترك المباني. لكنّ الحرب كانت شاملة في آخر مرّة، وكاد البشر ينقرضون. بقيت فقط المباني الشاهقة فارغة على عروشها تتحدّث عن مجد إنساني غابر لكائنات تطاولت في البنيان ودمّرت بيئة الكوكب حتى شحّت المياه وندرت المزروعات، واضطرّت إلى محاربة بعضها بعضًا على الفتات المتبقّي. لكن، رغم تلك الحروب المدمّرة، لم يتعلّم الإنسان الدرس. البؤس البشري لا حدّ له، في كلّ العوالم. لم ينجُ سوى بضع مئات. مع ذلك، كانت الأنانية والاستغلال أوّل فعل تواصل بينهم. بدأ الأقوياء يسبون النساء ويستعبدون الضعفاء، وخلال سنوات قليلة تكوّنت طبقتان اجتماعيتان منفصلتان. سمّى الأقوياء أنفسهم النبلاء الزرق، ووسموا العبيد بالسواد. نسبوا أنفسهم إلى الآلهة، وبنوا المعابد والتماثيل

لتمجيد آلهة وثنية مزعومة. كذبوا في البداية لإخضاع العبيد بسلطة الدين والقدر المكتوب الذي لا تغيير له، ثمّ مرّت السنوات وصدّقوا كذبتهم. نسوا كلّ شيء عن الربّ الواحد خالق الأكوان، وصاروا يعبدون تماثيل يصنعونها بأيديهم ويتقرّبون بالقرابين لآلهة خلقتها أوهامهم. آه، مخيف ما سمعته ورأيته هناك، في ذلك العالم. أراد السادة الزرق أن يوفّروا الحماية لمدينتهم، حتى لا تتكرّر الحروب المدمّرة، فقرّروا تقديم سبع فتيات قرابين للآلهة، كلّ سنة في اليوم السابع بعد تمام البدر السابع. ولترسيخ هيمنتهم قالوا أنّ الآلهة لا تقبل بتضحية العبيد، ويجب أن تكون القرابين من صلب السادة الزرق. لكن بعد سنوات قليلة، بدأ السادة يتذمّرون ويتهرّبون من التضحية ببناتهم. استفتى النبلاء الكهنة فكان الحلّ أنّ الفتيات يجب ألّا يكنّ بالضرورة من أصلاب النبلاء، بل يكفي أن يحملن أسماء النبلاء وهيئاتهم. فبدأ السادة يتجوّلون في بيوت العبيد المكتظّة بالبنين والبنات، وينتقون أجمل الفتيات، يمنحونهنّ ألقابهم وبضعة أشهر من العيش الرغيد في بيوتهم ريثما يحين موعد التضحية بهنّ. لاحقًا، سيملّ السادة من عملية التبنّي هذه، وسيجدون فكرة أفضل لهم. أخذ البنات الصغيرات إلى معبد أنشئ خصّيصًا لتنشئة الفتيات لأجل التضحية بهنّ. في المعبد يتعلّمن شيئًا واحدًا: أنّ دورهنّ الوحيد في الحياة هو الذبح في معبد الآلهة عندما تسيل دماؤهنّ أوّل مرّة. استمرّ الأمر كذلك عقودًا صار فيها يوم القربان احتفالية عظيمة يحتفل بها السادة والعبيد على السواء. ما عاد النبلاء يزعجون أنفسهم بأمر القربان، صار الكهنة يأخذون من كلّ بيت معلومًا سنويًّا ويتكفّل المعبد بسلب الفتيات من بيوت العبيد وتسجيلهنّ في دفتر المعبد بأسماء العائلات النبيلة، وتنشئة الصغيرات مستعدّات ليوم

القربان العظيم بأريحية تامّة، حتى جاء الكاهن الشابّ يعقوب، ووقع في حبّ الفاتنة سارة. عندذاك، تغيّر كلّ شيء».

استوحيت تلك الفكرة من تقرير صحافي لكاتبة كندية مقيمة في فرنسا، أعتقد أنّ اسمها مارغريت آتوود. الخبر عن أمر غريب كنّا نحسبه يحدث فقط في أميركا، لكنّه هذه المرّة حدث في فرنسا، في ضاحية باريس الأبعد عند حدود أميان. في مزرعة في أعماق الغابة تكوّنت طائفة دينية سرّية يدّعي مؤسّسها النبوّة ويقول أنّ الربّ يتجسّد له كلّ ليلة ليوحي له بفصول الإنجيل الجديد، وبعد ذلك يندمج الربّ في جسد نبيّه ليلقّح نساء الدين الجديد ليلدن نواة الأمّة الجديدة التي سترفع راية هذا الدين؛ أمّة أبناء الربّ التي ستسود العالم وتستعبد الأغيار، كما ورد في صفحات من كتابهم نجت من الحرق حين دهمت الشرطة المزرعة.

لم يكن في المزرعة سوى رجال قليلين متفرّغين للأعمال اليدوية والحراسة، أمّا النساء فقد وصل عددهنّ إلى تسع وتسعين امرأة، كنّ جميعهنّ حوامل حين دهمت الشرطة المزرعة. كتب مؤسّس الطائفة في كتاب التعاليم أنّ الأديان الإبراهيمية تعرّضت للتحريف وأنّه هو النبي الأخير الذي سيعيد التائهين الضالّين إلى أبواب الربّ، وأنّ أوّل مرحلة هي التلقيح، حيث يلقّح الربّ المتجسّد فيه النسوة المختارات ليلدن أبناء الربّ المسخّرين لحكم الناس جميعًا. لم يعرف بعد المحقّقون كيف كان يتمكّن ذلك النبي المدّعي من جلب النساء إلى المزرعة، وهنّ من جنسيات مختلفة ودول متباعدة. منهنّ الأوروبيات والأميركيات والآسيويات والعربيات.

يقول الحَبر يعقوب الذي كشف المزرعة، بمصادفة محض، حين ضلّ طريقه في الغابة طيلة يومين من الأمطار الغزيرة، أنّ النساء بدونَ له مسلوبات الإرادة تمامًا. كنّ يتحرّكن بنشاط وينجزن

المهمّات بهمّة، لكنّ عيونهنّ كانت غائمة فارغة من أيّ تعبير، كأنهنّ مسحورات. إلّا سارة التي سحرته بعينيها النجلاوين. سيعرف لاحقًا أنّ كلّ نساء المزرعة كنّ زوجات مدّعي النبوّة، إلّا سارة، فهي ابنته التي ترافقه مُذ كانت صبية صغيرة، بعد وفاة والدتها في حادثة سير في بغداد. إلا أنّها مثل نساء المزرعة، متشبّعة بفكر النبوّة التي يدّعيها والدها، وتصدّقه تمامًا.

قرّر يعقوب تحرّي الأمر، فأخفى هوّيته وادّعى أنّه شخص حائر خرج بحثًا عن الربّ. لم يكن ادّعاء ذلك صعبًا عليه نظرًا إلى حالة التشرّد التي كان يبدو فيها. عرض عليه النبي البقاء معهم وأخذ تعاليم الدين الحقّ الوحيد الذي جاء ليكشف زيف كلّ الأديان الأخرى، لكنّ حركات يعقوب بقيت محدودة ضيّقة وكلّ تصرّفاته مراقبة. كان يعرف أنّه سجين في المزرعة ولن يسمح له بالمغادرة حيًّا. بقي أسابيع يشارك الرجال أعمالهم اليدوية ويستمع لدروس المساء التي يعرض فيها النبي جديد الوحي الذي يأتيه. كان في أحيان كثيرة يجلس جانب سارة، على مرأى الجميع، ليعرف منها قصّة بدايات الدين الذي يدعو أبوها إليه. خلال تلك الأيّام سحرته الفتاة، رغم ضلال أفكارها، وقرّر أنّه سيهديها حتمًا إلى طريق الصواب، وأراد أن يسمعها صوت الربّ الحقيقي، كما كان يفعل الحَبر آليعازر مع نساء بني إسرائيل اللواتي يهبن أنفسهنّ له لأجل الربّ (الذي ورد عنه في التلمود أنّه فتك بكلّ نساء الدنيا، ومنحه الربّ في النهاية، بصوته، الحياة الأبدية)، فأوصلها إلى الفراش وترك الباب والنوافذ مشرّعة ليدخل صوت الربّ، لكنّ ما وصلهما في غرفتها هو صوت الرجال الذين ضبطوهما وصوت والدها الذي فقد صوابه، فكان قراره الغاضب سجنهما حتى الصبح، ثمّ رجمهما معًا حتى الموت.

لم يشرح الحاخام كيف هرب، أو أنّ الصحف مُنعت من نشر كلّ ما صرّح به. كلّ ما ورد عنه، في المقال، أنّ سارة ساعدته في الوصول إلى منفذ سرّي في المزرعة، لكنّها رفضت الهروب معه.

ختمت الصحافية تقريرها بنبذة موجزة عن النبي المزعوم، أبو بكر البغدادي الذي كان مقرّبًا للرئيس العراقي، وكان مدير استخباراته، قبل أن يختلفا على راقصة روسية أتى بها أبو بكر لكنّ الرئيس أرادها لنفسه. لم يستطع البغدادي إخفاء تذمّره، فأراد الرئيس أن يلقّنه درسًا. عزله من منصبه وفرض عليه الإقامة الجبرية أسابيع حتى تدخّل السفير الأميركي لمصلحة البغدادي فأفرج عنه الرئيس. لكنّه لم يعده إلى منصبه واكتفى بتعيينه رئيسًا للكلّية الحربية. لم يدرك الرئيس أن أكبر خطأ يمكن الوقوع فيه هو تسليم الجنود والضبّاط الجدد إلى أسد جريح. لم يمضِ سوى أشهر قليلة حتى جاء البغدادي بجيشه الصغير ليستولي على القصر الرئاسي. لكنّ الرئيس، رغم هفواته الكثيرة، لم يكن مبتدئًا. كانت لديه بدوره خطط طوارئ ومئات الرجال ممّن هم مستعدّون للموت لأجله. استمرّت المعركة ثلاثة أيّام وعاد الرئيس إلى قصره الذي تهدّم أغلبه، واختفى البغدادي، مع ابنته، حتى ظهر بعد سنوات في المزرعة الفرنسية مدّعيًا النبوّة.

تلك كانت الفكرة الأصلية للرواية، لكنّني وجدت أنّ شخصية الخالة ميمونة أكبر من قدراتي آنذاك، فتركتها جانبًا وركّزت على شخصية الصحافي إدمون المالح. حبكة الجاسوسية استهوتني كثيرًا. أردت كتابة رواية كاملة عن الخداع الذي يعشّش في عالم الاستخبارات، غير أنّ تدخّل فرانز لاحقًا دفعني لتغيير المسار مجدّدًا وتحوّلت إلى الكتابة عن ناشر يرشو لجنة تحكيم جائزة أدبية.

أخذت، لحظتذاك، رشفة إضافية بحثًا عن دفء يغطّي الرجفة التي بدأت تسري في أوصالي. ابتلعت ريقي وتنهّدت.

قلت: «سأحكي في الرواية عن الصحافي إدمون المالح. كان إدمون رافضًا كلّيًّا الهجرة إلى إسرائيل، لكنّه وقع في حبّ فتاة مسلمة وحين رفضته عائلتها بشكل مخز وجد نفسه...».

«آها»، قاطعني فرانز وطقطق أصابعه متابعًا بحماسة: «إذًا، تنوي أخيرًا كتابة سيرتك الذاتية؟».

أزعجتني مقاطعته ونقلتني عبارته عنوة (من دون مبرّر واضح، لكنّ هذه هي الذاكرة، انتقائية جدًّا واعتباطية) إلى سنوات كانت قد مضت، أشعر بشكل ضبابي أنّني جاهدت من قبل طويلًا لنسيانها.

كنّا نعرف، إيمان وأنا، أنّ حبّنا الذي لا نملك يدًا فيه وضعنا في موقف شبه مستحيل. لكنّنا قرّرنا خوض التحدّي ومواجهة الصعوبات معًا، مهما كلّف الأمر. أخبرت هي والدتها بمجيء خطيب، وحين ذهبت، في اليوم الموعود، استقبلت بحفاوة الضيف، لكنّها حفاوة مشوبة بقلق حذر بسبب حضوري وحيدًا. ولأنّ اسم عَمران (تنطقه إيمان عِمران) لا يشي بدیانتي، لم يعرف الأب أنّني يهودي الديانة إلّا بعد أن طال الحديث بيننا وتشعّب. عندذاك، انتفض صارخًا وتناثر لعابه على وجهي. كان غضبه أسطوريًّا وجنونه مستعرًا بسبب تجرّؤ يهودي على طلب يد ابنته (لا أعرف ما إذا كان يمكن تسمية رفضه عنصرية ضدّ اليهود أم هو رفض إلزامي تفرضه الشريعة الإسلامية بخصوص تحريم زواج النساء المسلمات بغير الرجال المسلمين). ولأنّ الغضب معدٍ فلم أملك أن أتجاهل سؤاله الإنكاري ورددت عليه بسؤال آخر. سألته عمّا إذا كان يفضّل أن أذهب من وراء ظهره وأستغلّ حبّ ابنته لي. كرهت نفسي حين قلت له ذلك. عضضت شفتي السفلى وعدت خطوة إلى الخلف. صمت الأب ثوانيَ من هول

صدمته ممّا قلت، ثمّ أرسل كفّه الثقيلة إلى وجهي. صمت مرّة أخرى ثوانيَ أخرى كأنّه ما زال لا يصدّق، ثمّ انفجر يصفني بأقذع الأوصاف والنعوت وصكّ مسامعي بأشنع عبارات السباب قبل أن يدفعني خارجًا ويقفل الباب، ثم يجري إلى النافذة ويواصل سبّه الشامل لجنس اليهود، ما أثار انتباه شباب الحيّ، خصوصًا حين قال أنّ ابنته أطهر من أن يتزوّج بها يهودي (هذه عنصرية، يمكنني الجزم بذلك). كان كلامه إيذانًا ببدء حفلة أحياها شباب الحيّ بالهجوم عليّ من كلّ صوب، فانهالت عليّ الركلات واللكمات حتى استقبلتني الأرض فاقدًا الوعي. استيقظت لاحقًا في المستشفى وبقيت هناك بضعة أيّام تحت المراقبة الطبّية الإجبارية قبل أن يزورني أحد رجالات الوكالة اليهودية.

«أين ذهبت؟»، انتشلني سؤال مسيو غولدشتاين من ثقب الذكريات الأسود، فرسمت ابتسامة باهتة على وجهي.

«كلّا، الرواية ستكون عملًا خياليًّا محضًا. لن أكتب شيئًا من سيرتي الذاتية».

حسنًا، كذبت. الحقيقة هي أنّه لا توجد رواية خيالية تمامًا، وكذلك لا توجد رواية واقعية حقيقية تمامًا. يمكن أن نكتب عن حرب السفن الفضائية بين النجوم ومع ذلك، ستتسرّب إلى الأحداث تفاصيل من حياتنا وسيَرنا الذاتية، ويمكن أن نكتب سيَرنا الذاتية ومع ذلك، ستشوّه أوهام الذاكرة وتضفي على السيَر خيالًا لا حدود له.

حرّكت رأسي يمينًا ويسارًا وأعدت التأكيد: «الرواية خيالية تمامًا». وأضفت: «كان إدمون صحافيًّا شيوعيًّا يكتب باسم عيسى العبدي عن معاناة العمّال ويطالب بالمساواة بين طبقات المجتمع. كان رافضًا كلّيًّا الهجرة إلى إسرائيل ويعتبر اليهود الذين يتركون المغرب خونة. آراؤه تلك لفتت إليه انتباه شبكة عملاء الاستخبارات

المصرية التي كانت نشطة في الدار البيضاء، فتقرّب منه ضابط مصري لتجنيده...».

«كلام مشوّق. تابع، تابع»، جاءت همهمة فرانز مرفقة بابتسامة واسعة.

«كانت الشكوك تساور الاستخبارات المصرية حول عمليات تهجير يهود المغرب عبر سفن إسبانية، وأرادت دسّ إدمون كمهاجر محتمل لتحيط بأسرار العملية وتفاصيلها و...».

«رائع!» قاطعني فرانز مجدّدًا، وهذه المرّة ارتسمت أمارات الإعجاب على وجهه. «هكذا تُغرِق الاستخبارات المصرية السفينة. رائع. أحسنت عزيزي عمران. فلنظهر للعالم وحشية العرب».

«على رسلك عزيزي فرانز. لم أصل إلى تلك المرحلة من الكتابة بعد. عمومًا، أفضّل ألّا أصدر أيّ حكم هنا، وغالبًا سأترك الأمر لتأويل القارئ حين أضعه في مواجهة احتمالين: إمّا أنّ المصريين أغرقوا السفينة، أو أنّ غرقها كان بسبب تجاهل الموساد أعمالَ الصيانة».

في تلك الفترة، لم أكن قد قرّرت فعلًا كيف سأكتب ذلك الجزء. بشكل عام، كنت أفكّر في جعل إدمون يقبل العمل مع الاستخبارات المصرية، طالما أنّه لا يضرّ بمصلحة المغرب. كان نشاط الموساد مزدهرًا آنذاك، ولم تكن الاستخبارات المغربية، كجهاز استخباراتي مستقلّ، قد تشكّلت بعد. لذلك، سيوافق إدمون على المهمّة الموكلة إليه. كان يعتبر نفسه مغربيًّا بشكل كامل ولم يكن لديه أيّ ولاء لدولة إسرائيل. سيذهب لخطبة جارته المسلمة وهو يعرف يقينًا أنّه مرفوض. لا أمل أبدًا بأن تقبل به عائلتها ولا هي نفسها. حاجز الدين يفرض نفسه وهو يعرف أنّ المسلمة لا تتزوّج إلّا مسلمًا. سيضع نفسه في موقف سيثير حنق الأب الذي سيحرّض، خلال فورة الغضب، شباب الحيّ، فيعتدون على إدمون بطريقة

وحشية ستودي به إلى غرفة الطوارئ في المستشفى. وفي الفترة نفسها، سيكتب مقالات عن حصار القوات المسلّحة الملكية منطقةَ الريف وسيحذّر من المستقبل الأسود الذي يسير إليه المغرب إذا استمرّ الحسن الثاني مستفردًا بالحكم. في المستشفى، سيجيئه أحد ضبّاط الشرطة السياسية للتحقيق معه حول مقالاته. لن تسمح حالته باعتقاله ولا حتى باستنطاقه. خطّة إدمون مع المصريين هي أن يضع نفسه في موقف ميؤوس منه حتى يصدّق رجال الوكالة اليهودية، الذين يعرفون رفضه الهجرة إلى إسرائيل، أنّ حياته في المغرب صارت في خطر داهم، وأنّه الآن بحاجة إلى الهجرة.

أتذكّر أنّ مسيو غولدشتاين امتعض من تعليقي. كان يشتهي أن أكتب صراحة ما يورّط المصريين في غرق السفينة. تأفّف بصوت مسموع ثمّ قفز مغيّرًا الموضوع، كأنّه استنفد صبره على المواضيع الجانبية: «ألم تقرأ بعد رواية اليوم المقدّس؟».

توقّعت ذلك السؤال منذ بداية اللقاء وتمنّيت ألّا يسأله. اليوم المقدّس هي الرواية التي كانت تخصّص لها آنذاك دار إديسيو دو سابل الجزء الأكبر من ميزانية التسويق السنوية. هي الرواية الثانية لكاتب مغربي كان قد حصل، قبيل أشهر من نشر الرواية، على الجنسية الفرنسية. لا أحبّ تخلّي ذلك الكاتب عن لغته العربية والكتابة بالفرنسية تملّقًا للفرنسين ليس إلّا. أنا أشعر بالحزن لأنّني لا أجيد العربية. لو كنت أتقن القراءة والكتابة بالعربية الفصحى لما كتبت بالفرنسية. لكن للأسف كان تعليمي، كما كلّ أبناء العائلات اليهودية، بالفرنسية كلغة رئيسية مع بعض الدروس المحدودة بالعبرية، ولم تتح لي الفرصة لتعلّم العربية، أو للحقيقة، لم أكن آنذاك مهتمًّا بها.

الآن، وقد تذكّرت مسألة اللغة، أفكّر في مدى هشاشة تعايشنا السلمي مع المسلمين، وكيف أنّنا تسبّبنا بأنفسنا في ذلك. كيف نتوقّع من جيراننا المسلمين أن يثقوا فينا ونحن نعزف عن مدارسهم ونتجاهل لغتهم؟ ربّما الأمر لم يكن هكذا دائمًا، أو ربّما هم أبعدونا عن مدارسهم. أتذكّر أنّ والدتي كانت تلزمنا بالحديث بالعربية في البيت. «العربية ديالنا» كما كانت تقول، بلهجتها المغربية المطعّمة بخليط من الفرنسية والإسبانية وبعض الكلمات العبرية. على العكس منها، كان والدي يتحدّث معنا بالفرنسية حصرًا. كان يعتبر الفرنسية لغة الرقي والحضارة، وكان في كلّ تفاصيله من ملبس ومأكل ومشرب يماثل الفرنسيين. ربّما هناك عائلات كثيرة مثل عائلة أمّي تفخر بانتمائها المغربي وأخرى مثل عائلة أبي تتنصّل من ذلك. أتذكّر أنّني بعد عام من هجرتي إلى إسرائيل، بحثت عن فروع من عائلة والدتي، وحين زرتهم تفاجأت بمّا رأيت. رأيت أفرادها، كما مهاجرون آخرون من المغرب، قد أقفلوا على أنفسهم في حيّ خاصّ بهم، وحافظوا على كلّ تقاليدهم المغربية، على أطعمتهم وملابسهم ولغتهم. لا أحد منهم تعلّم حرفًا من العبرية. نقلوا الحيّ كاملًا، كما كان في المغرب، ونسخوه في إسرائيل. تساءلت يومذاك، ما الذي أتى بهم إلى هنا إذًا؟ الجواب الذي رفضت تصديقه آنذاك هو أنّه قد غُرّر بهم من رجال الوكالة اليهودية وسُحبوا من الوطن الوحيد الذي عرفوه ليعمروا أرضًا تسمّى أرض الميعاد.

«بلى، قرأتها».

غمغمت بالجواب وأنا أكاد أتوقّع سؤاله التالي، في حين تظاهر فرانز بالانشغال بتقطيع شريحة اللحم المشوية وأطلق سؤاله التالي بشيء من اللامبالاة: «لاحظت أنّك لم تكتب عنها أيّ مراجعة بعد. ألم تعجبك؟».

لا أتذكّر ما كان ردّي تحديدًا. غالبًا، قلت كلامًا ديبلوماسيًّا عامًّا مع وعد فضفاض بالكتابة عن الرواية لاحقًا. لكن، أتذكّر جيّدًا أنّ مسيو غولدشتاين لم يكن مهتمًّا بسماع ردّي. كان يمضغ على مهل قطعة اللحم في فمه وعيناه تفضحان انشغاله بموضوع آخر. ثمّ رفع رأسه بغتة ونظر إلى عينيّ مباشرة: «نريدك أن توصل الرواية إلى القائمة القصيرة».

باغتني طلبه ولم أستوعبه أوّل وهلة، ثمّ مجرّد أن سألته عن قصده فهمت الأمر.

تعتبر الغونكور أبرز الجوائز الأدبية في فرنسا. منحت أوّل مرّة في العام 1903، وهي تنتقي كلّ عام أفضل رواية فرنسية. أو لنقل يفترض أنّها تنتقي أفضل رواية، لكنّ الحقيقة أنّ دور النشر الكبيرة هيمنت عليها، وتمكّنت بفضل علاقاتها الكبيرة المتشعّبة من أن تؤثّر باستمرار في توجّهات المحكّمين الدائمين للجائزة. لذلك، قررت بعض دور النشر المتوسّطة والناشرون المستقلّون وبعض المؤسَّسات الإعلامية الكبرى، مع تبرّعات كريمة من أحد رجال الأعمال المحبّين للثقافة، تأسيس منظّمة غير ربحية لتشرف على جائزة سنوية جديدة تحتفي بالإبداع في فرنسا، سواء المكتوب بالفرنسية أو المترجم إليها، بعيدًا عن هيمنة رؤوس الأموال الكبيرة المتحكّمة في صناعة النشر.

تحدّث فرانز بعد أن طال صمتي المرتبك: «نعرف بتأسيس منظّمة الثقافة الحرّة لجائزة رواية السنة، ونعرف أنّك عضو في لجنة التحكيم كما نعرف أنّكم اتّفقتم على الانتقاء الذاتي للروايات والاحتفاظ بسرّية الدورة الأولى من الجائزة إلى غاية الإعلان عن القائمة القصيرة».

«ك... كيف عرفت؟».

«عمران عزيزي. نحن نعرف كلّ شيء». صيغة الجمع التي يتحدّث بها فرانز تزعجني، ولم أعرف من يقصد بـ«نحن» إلّا لاحقًا.

«نعرف أنّ كلّ فرد من لجنة التحكيم اقترح مجموعة من الروايات، مع تقديم مراجعة لكلّ رواية، ثمّ رتّبتم الروايات بحسب تصويتكم الداخلي واخترتم عشر روايات للقائمة الطويلة. كما نعرف أنّكم تدرسون الآن هذه الروايات العشر، واليوم المقدّس إحداها، لاختيار خمسٍ منها للقائمة القصيرة، وبعد ذلك ستعتمدون الرواية الفائزة بحسب تصويت القرّاء».

توقّف فرانز برهة وعبّ من نبيذه، قبل أن يستكين بظهره المستقيم على كرسيه، ويواصل الكلام:

«نعرف جيّدًا أنّ الانتقال للقائمة القصيرة يتطلّب الموافقة بالإجماع من كامل أفراد لجنة التحكيم. لقد حصلنا على موافقة كلّ الأعضاء الآخرين. أنت الوحيد المتبقّي».

ابتلعت ريقي ونقرت بأصابعي على الطاولة بعصبية، وأنا أفكّر كيف استطاع الوصول إلى كلّ أعضاء اللجنة وإغراءَهم، وهم خيرة المثقّفين المستقلّين المدافعين عن حرّية الإبداع كما يُفترض.

«اسمع مسيو المالح»، قال مسيو غولدشتاين واستند بمرفقيه إلى الطاولة. «قل أنّك موافق على تمرير رواية اليوم المقدّس إلى القائمة القصيرة، وستحصل فورًا على شيك بقيمة عشرين ألف فرنك». وأخرج فرانز الشيك ووضعه أمامي. «وأيضًا، ستحصل منّا على عرض لم نمنحه من قبل لأيّ كاتب عن روايته الأولى. سنوقّع معك عقدًا لنشر روايتك الأولى، حتى قبل أن تكمل كتابتها، مع دفعة أولى قيمتها عشرين ألف فرنك أخرى كتسبيق على الأرباح».

تسارعت دقّات قلبي وأنا أرى الشيك أمامي وأسمع عرضه الخاصّ بالنشر. يا لهذا العرض المغري.

لكن لا، لا يمكنني تسميته بغير اسمه الحقيقي: رشوة.

أذكر أنّني دفعت إليه الشيك بأطراف أصابعي كأنّني أبعد حشرة تثير الاشمئزاز في نفسي، ولاحظت شعلة نارية من الغضب مرّت سريعًا على عينيه.

فكّرت في هذه الرشوة المغرية وما يماثلها من العروض المقدّمة للآخرين، ولم أملك منع نفسي من السؤال: «ما سرّ اهتمامكم بهذه الجائزة الوليدة؟ لديكم الغونكور وجوائز دولية أخرى. ما حاجتكم إلى هذه الجائزة ولماذا هذه الرواية تحديدًا؟ نشرتم هذه السنة روايات أفضل تنضح بالإبداع. أمّا اليوم المقدّس فمجرّد رواية مغرقة في الفولكلورية لا تقدّم أيّ جديد. فقط الصورة المعتادة عن العرب والمسلمين، والتي هي بعيدة تمامًا عن الصواب. وحتى عن الناحية الأدبية الصرف، الرواية متواضعة».

«عزيزي، نحن نفكّر في المستقبل ولا نسجن أنفسنا بمحدودية الحاضر. هذه الرواية لن تحقّق الكثير اليوم. ربّما ستثير بعض القلاقل هنا وهناك، وقد تمنع في أكثر من دولة إسلامية، وقد لا تبيع أكثر من مليون نسخة. كاتبها لا يزال مغمورًا اليوم، لكنّه بعد سنوات قليلة سيصير نجمًا». ابتسم فرانز. ارتسم على وجهه مزيج من الخبث والخيلاء، وأخذ المنديل ومرّره على شفتيه قبل أن يتابع: «سيكون نجمًا تابعًا لنا نوجّهه حيث نشاء كيفما نشاء». ثمّ وضع أصابع يده على طرف الطاولة واقترب بوجهه هامسًا. «خذ منّي هذه النصيحة: حان الوقت لتتخلّى عن أوهامك الشيوعية. فكّر في مصلحتك الذاتية، وفكّر في خدمة بني جنسك. هذا العالم لنا. كان لنا وسيبقى لنا».

طلب فرانز أن أتخلّى عن أوهامي الشيوعية! هل أنا شيوعي؟ لا أشعر بالاطمئنان لهذا. نعم، ما زلت لم أسترجع من ذاكرتي إلّا ما تدفّق عبر الانسياب الحرّ للأفكار على الصفحات السابقة، لكنّني في

أعماقي لا أشعر البتة بأنّني شيوعي. بشكل ما أشعر بأنّها سبّة في حقّي. لكن، من جهة أخرى ثمّة جزئية مقلقة وهي تشابه ما تذكّرته حتى الآن مع ما يفترض أنّني كتبته في الرواية. البطل إدمون المالح يتشارك معي الاسم، هو صحافي أيضًا، وشيوعي كذلك. هل كان تعليق فرانز في محلّه حين قال أنّني أكتب سيرتي الذاتية متخفّيًا تحت قناع إدمون، المتخفّي بدوره تحت الاسم المستعار عيسى العبدي؟ المقلق أيضًا هو حديث فرانز المتعالي عن أنّ هذا العالم خلق لأجلنا، نحن اليهود، وأنّه كان لنا منذ الأزل وعلينا أن نستعيد السيطرة عليه. هذه الأفكار هي ما جلب لنا كراهية كلّ الأجناس الأخرى، وتخوّفهم من أنّ لليهود يدًا في كلّ كوارث العالم وأذرعًا ممتدّة تعمل في كواليس كلّ المنظّمات السرّية التي تهدف إلى إخضاع الأغيار.

اكتفيت يومذاك بأن أخرجت من جيبي مئة فرنك، قيمة وجبة الغداء وزيادة، وتركتها على الطاولة ونهضت واقفًا. نظرت بغضب إلى فرانز، مباشرة إلى عينيه، ودار في رأسي الكثير من الكلام المتداخل، لكنّني لم أقل شيئًا. فقط توجّهت نحو الباب وغادرت.

كان نور الشمس في الخارج قد انسحب بسرعة في تلك الظهيرة المكفهرّة، تاركًا المساء لكتل السحاب المحمّلة بأمطار خريفية عاصفة. من السنوات التسع التي أمضيتها في فرنسا، لا أذكر خريفًا باريسيًّا عاصفًا وممطرًا كما كان في تلك الظهيرة. في الحقيقة، لن أستغرب لو أنّ الجوّ كان صحوًا يومذاك، لكنّ ذاكرتي تخدعني الآن بمؤثّرات بصرية تتماشى مع حالتي النفسية كما أتذكّرها لذلك اليوم. عمومًا، أتذكّر أنّني لم أهتمّ بالمطر الساقط ولم أحاول الجري نحو مدخل محطّة المترو القريبة، بل انعطفت يسارًا عند زقاق صغير وواصلت المشي ببطء، واضعًا يديّ في جيبَي معطفي، ورأسي منحنٍ، انكسارًا ربّما أو على الأرجح اتّقاء للريح التي كانت تصفعني.

تذكّرت شجن شمعون دنكور، صديقي الوحيد في فرنسا وقد كان من قبل أحد أساتذتي في المغرب. جاءنا هاربًا من حزب البعث العراقي بعد أن طمع ضابط في الجيش في الفتاة المسلمة التي كانت تبادل شمعون الحبّ حبًّا. أتذكّره وهو يقرأ بعينين دامعتين قصيدة أنشودة المطر. يا لسحر قراءته وشجنه وعينيه الطافحتين بالحنين لمدينته البصرة، المحافظة ذاتها التي تنتمي إليها قرية جيكور مسقط رأس الشاعر بدر شاكر السيّاب. لم أكن أفهم من كلمات القصيدة العربية إلّا القليل، لكن شجن شمعون كان يمسّ شغاف قلبي بسهولة، وحين لخّص لي لاحقًا أغلب أبيات القصيدة بالفرنسية أحسست بعظمتها أكثر. كانت النصّ العربي الوحيد الذي حفظته لاحقًا.

يلقي شمعون أبيات القصيدة ويصاحبها بحركات جسده الحزينة التي تكاد تتحوّل إلى رقصة باذخة الحنين والألم. يصير خفيفًا كأنّه يطفو على الهواء وهو يردّد: «عيناك غابتا نخيلٍ ساعة السحر، أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر»، ولا أملك أن أمنع عينيّ من أن تدمعا حين يصل إلى «كالبحر سرَّح اليدين فوقه المساء، دفء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف، والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛ فتستفيق ملء روحي، رعشة البكاء»، ولا جسدي من الارتعاش حين يضرب شمعون الأرض بقوّة بقدمه ويميل صدره إلى الأمام وهو يردّد لازمة القصيدة «مطر، مطر، مطر». ويبقى السؤال المفجع «أتعلمين أيَّ حزنٍ يبعث المطر؟» الذي يثير في نفسي كلّ ذكريات الرحيل، «وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع ثمّ اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر... مطر... مطر».

حين ترجم لي شمعون القصيدة صرت أتماهى مع شجنه أكثر وأكثر، وصرت مثله، كلّما هطل المطر، حضرتني القصيدة وسكنني الحنين إلى الوطن. الوطن الذي غادره كلّ منّا على غير رغبة منه.

لكن أيّ وطن تراه؟

هل هو المغرب الذي كنت أعرف منذ فترة الطفولة أنّه مرحلة موقّتة ليس إلّا. مجرّد نقطة عبور إلى فرنسا بعد الحصول على شهادة البكالوريا؟ أم تراها أرض إسرائيل التي اندفعنا إليها مشحونين بفخر انتصارنا في حرب الأيّام الستّة ثمّ ضاقت عنّا بعد سنوات قليلة حين نخر فيها الفساد وساد فيها الطمع، واكتشفنا أنّنا محض أرقام انتخابية تتصارع عليها الأحزاب خلال فترة الانتخابات ثمّ ترميها خلف ظهورها بعد ذلك؟

كنّا نعرف دائمًا أنّ وجودنا في المغرب موقّت. ما إن نحصل على البكالوريا حتى نغادر من دون رجعة. ليس إلى إسرائيل، التي لم نكن نعرف عنها شيئًا آنذاك، بل إلى فرنسا التي نتحدّث لغتها، والتي ندرس في مدرستنا ما يدرسه الفرنسيون نفسه في أرقى مدارسهم.

الحقّ يقال، لم نكن نشعر بأيّ غرابة من هذه الازدواجية في الانتماء أو الولاء. عشنا سنوات وسط المغاربة المسلمين. كانوا جيراننا وكان بعضهم أصدقاءنا، لكنّنا في الوقت نفسه نعلم في صميم دواخلنا أنّ وجودنا بينهم موقّت. من أين جاء هذا اليقين؟ لا أعرف. أعتقد لم يكن لدينا الخيار. الظروف دفعتنا دفعًا إلى هذا الانفصام. أن نكون مغاربة سنوات محدودة ثمّ نفرد أجنحتنا ونطير. إلى فرنسا لمن تسمح مؤهّلاته العلمية أو المادّية بذلك، أو إلى المستوطنات في إسرائيل لمن يتعذّر عليه غير ذلك. هجرة الأبناء كانت أمرًا مسلّمًا به حتى لدى الآباء والأمّهات الذين كانوا يعلنون صراحة أنّ وطنهم الوحيد هو المغرب، (وإن كان ذلك لم يمنعهم من إرسال التبرّعات باستمرار إلى إسرائيل، عبر وكالات الهجرة).

سلّمت فرنسا إدارة البلاد إلى المغاربة في العام 1956، وخرجت بعد أن أدخلت المغرب عالمَ الحضارة. لا أحد من المغاربة

طالب آنذاك بالتخلّص من آثار الثقافة الفرنسية كما فعل الجزائريون في الجوار. لذلك، نشأنا منذ طفولتنا ونحن نرى أنّ فرنسا هي قمّة الحضارة، وأنّ مستقبلنا سيكون هناك لا محالة. كنت أدرس في «المدرسة العبرية العادية» في الدار البيضاء. هي ثانوية راقية لا تستقبل سوى النخبة من أبناء اليهود وأبناء الفرنسيين. لم أكن لأخطو بقدمي داخلها لولا والدي. لم نكن أغنياء. قطعًا لم نكن كذلك، فوالدي بالكاد كان ضابطًا صغيرًا في الجيش الذي كوّنته فرنسا ثمّ تحوّل بعد الاستقلال إلى القوّات المسلّحة الملكية. كان واحدًا من اليهود القلائل الذين بقوا في الجيش بعد الاستقلال. ربّما كنّا فقراء، أو في الأقلّ أسرة متوسّطة لربّها دخل لا بأس به لكنّ عدد أفرادها أكبر ممّا يجب. لكن، بفضل نمط حياة والدي الباذخ وعلاقاته بضبّاط الجيش الكبار وبعض الأسر الراقية، في مكناس ثمّ في الدار البيضاء، وافق مدير المدرسة مسيو سِبان على قبولي تلميذًا في المدرسة مجّانًا، طالما بقيت من الثلاثة الأوائل في كلّ الامتحانات. لم يصعب عليّ تحقيق ذلك، وكان التوقّع أن أذهب فورًا إلى إحدى المدارس العليا في فرنسا.

لكنّ الأمر بدأ يتغيّر بعد حرب الأيّام الستّة والفخر الذي سكن قلوبنا بالانتصار العظيم الذي حقّقته إسرائيل ضدّ العرب وكيف دحرت جيوش ثلاثة دول دفعة واحدة. قبل الحرب المجيدة لم يكن أحد منّا يجرؤ على ذكر إسرائيل بالاسم. خوفًا ربّما من وسم جيراننا لنا بالصهيونية (وهي كلمة لم أكن أحيط بمعناها آنذاك) أو ربّما قلّة اهتمام منّا ليس إلّا، أو على الأرجح تقية مكتسبة منذ آلاف السنوات تنتقل عبر جينات اليهود جيلًا بعد جيل. لكن، بعد الحرب صرنا نكرّر الاسم بيننا بفخر واعتزاز. تبخّر خوفنا من الجيران المسلمين رغم أنّنا بقينا حذرين من نار غضبهم التي تكوي أجسادهم من الداخل بسبب

ما سمّوه نكسة يونيو (كما سمّوا من قبل يوم استقلال إسرائيل يوم النكبة). صرنا نزيّن طاولتنا بعلم إسرائيل الأزرق البهيج، ونردّد في ما بيننا أناشيد وطنية حماسية، وصلتنا تسجيلاتها سرًّا، لا نفهم من كلماتها العبرية سوى القليل.

أبـرز تلك الأناشيد كانت القصيدة المغنّاة «يروشاليم شِل زهاف»، التي صارت في منزلة النشيد الوطني غير الرسمي لإسرائيل. عرفت حين تحسّنت عبريتي أنّ العنوان يعني قدس الذهب.

انطلق القلم بانسيابية التدفّق الحرّ يسترجع كلمات القصيدة، وضبطت نفسي أدندن اللحن كأنّني لم أنسه يومًا:

نسيم الجبال ينساب شفّافًا كالنبيذ
ممتزجًا بأنفاس الغروب ورائحة الصنوبر
وقرع الأجراس
في سكون الشجر والحجر
سكنت حُلمها المدينة التي تقبع وحيدة
ملتفّة بأسوارها
ومن نحاس ومن نور...
لكلّ أغانيك أنا قيثارة.
كيف نضبت آبار الماء في البلدة القديمة
ميدان السوق خالٍ
وما من زائر لجبل الهيكل
وفي الكهوف التي في الصخور عويل الريح
ولا أحد ينزل في اتّجاه البحر الميت في طريق أريحا
أورشليم من ذهب... ومن نحاس ومن نور...
لكلّ أغانيك أنا قيثارة.

ولكنّني من أجلك اليوم جئت أغنّي
أنا أصغر من أصغر أبنائك
ومن آخر المغنّين
لأنّ اسمك لاذع فوق شفتيّ كقبلة ملتهبة
إن نسيتك أورشليم التي كلّها ذهب
أورشليم من ذهب... ومن نحاس ومن نور...
لكلّ أغانيك أنا قيثارة.
عدنا إلى آبار المياه
للسوق وللميدان
المزمار يعلو في جبل الهيكل في البلدة القديمة
وفي الكهوف التي في الصخر
آلاف الشموس تشرق
ونعود للنزول في طريق أريحا إلى البحر الميت
أورشليم من ذهب... ومن نحاس ومن نور...
لكلّ أغانيك أنا قيثارة.

كنّا فخورين آنذاك بالنشيد. أمّا الآن فإنّني أدرك مدى الزيف الذي تروّج له، إذ تصف القدس بالمدينة المهجورة التي حِيل دون عودة سكّانها اليهود إليها. عرفت بعد سنوات، وأنا في إسرائيل، أنّ القدس لم تكن يومًا مهجورة. لم تكن أرضًا بلا شعب لأجل شعب بلا أرض، حسبما قيل لنا في مدرسة القرية الدينية.

كعادة الأناشيد، استثار ذلك النشيد جزءًا خفيًّا من ذاكرتي، ورأيت أمامي مشاهد حيّة للأيّام الأولى من يونيو 1967، وعادت إليّ كلّ مشاعر الخوف، ثمّ الفخر، التي شعرت بها، بل التي طغت علينا، آنذاك.

في اليوم الأوّل لبداية حرب الأيّام الستّة، وقد كان عمري خمسة عشر عامًا، كادت قلوبنا تتوقّف ونحن نسمع هتافات جيراننا المسلمين واحتفالاتهم، في العمارة وفي الحيّ وفي الشارع وفي كامل المدينة. كان الخبر يقول أنّ القوات العربية شنّت غارة أولى ناجحة على القوّات الإسرائيلية وهي الآن تواصل تقدّمها الذي لن يتوقّف حتى تقضي على آخر يهودي في فلسطين. ذلك ما كانت تقوله الأخبار التي تبثّها الإذاعات بين فواصل الأغاني الوطنية الصادحة. اعتقدنا يومذاك أنّ إسرائيل، التي لم تكمل عشرين عامًا من عمرها، في طريقها إلى الفناء، وأنّ حلم اليهود الأزلي بأرض الميعاد يتبخّر ويتلاشى. لم نكن نتعرّض للمضايقات الجسدية خلال تلك الأيّام لكنّ نظرات الشماتة في عيون المسلمين كانت تقتلنا. في تلك الفترة، كان يهود المغرب في معظمهم قد هاجروا إلى إسرائيل، بالتالي كان لأغلب من بقوا هنا أقارب كثيرون هناك تحت قصف نيران الجيوش العربية، فسكن الخوف الجميع على أحبّائهم الذين لم يروهم منذ سنوات.

قبل انطلاق الحرب بأيّام، كانت الأخبار تتحدّث عن استعدادات العرب لرمي اليهود في البحر. ملك الأردن تصالح مع عبد الناصر ووقّع معه اتفاقية دفاع مشترك، وبعد يومين وافق الأردن على عبور الجيش العراقي من أراضيه وهو في طريقه لتحرير فلسطين. واصلت مصر حشد قوّاتها في سيناء وتواصلت الخطب النارية لعبد الناصر. كنّا نعيش تلك الأيّام وقلوبنا عند حلوقنا.

تواترت الأخبار بسرعة خلال اليومين التاليين بعد انطلاق الحرب: سوريا تدمّر المنشآت العسكرية لإسرائيل ومعمل حيفا لتكرير البترول، المدرّعات المصرية تتجاوز دفاعات إسرائيل وتتوغّل في الداخل، الطيران المصري يسقط مئة طائرة إسرائيلية ويأسر الكثير من الطيّارين، القوّات العربية تقترب من تلّ أبيب وتأسر

لواء مشاة كاملًا بعدّته، الجنود الإسرائيليون يتخلّون عن أسلحتهم ويفرّون. والكثير من العناوين المشابهة التي ألهبت مشاعر المغاربة المسلمين كما لا شكّ ألهبت مشاعر كلّ العرب.

اليهود في معظمهم اعتصموا في بيوتهم في تلك الأيّام، وأيديهم على قلوبهم يترقّبون مصيرًا مجهولًا سكنه الخوف على أحبّائهم الذين هاجروا من قبل، على الوطن الموعود الذي بدا أنّه يتبخّر، وعلى نظرات الشماتة التي ستبقى في عيون جيرانهم إلى الأبد. لكنّ هذه المعاناة استمرّت أربعة أيّام فقط ثمّ سقطت على رؤوسنا جميعًا، يهودًا ومسلمين. كانت المفاجأة التي أصابتنا بداية بدوار عدم التصديق ثمّ بنشوة الاستيقاظ من كابوس جاثم. كلّ الأخبار التي صدحت بها الإذاعات العربية كانت أكاذيب دفع بها النظام المصري للتعتيم على المصريين وعلى كلّ العرب، بينما كانت الحقيقة عكس ذلك تمامًا. جيش إسرائيل تمكّن في غارة واحدة من تدمير أغلب الطائرات والمطارات المصرية وأصاب قوّاتها الجوّية بالشلل. تمكّنت إسرائيل من دحر جيوش مصر وسوريا والأردن وتوسّعت حتى استولت على كامل سيناء والضفّة الغربية وهضبة الجولان. يا لفخرنا آنذاك ونحن نستمع لخطاب جمال عبد الناصر يعترف فيه بالهزيمة ويعلن استقالته من منصبه.

احتفلنا يومذاك، وفي الأيّام التي تلت، بجنون.

بفرحة.

بنشوة.

بفخر.

أتذكّر جيّدًا الحبور الذي أضاء وجه والدتي التي لا أتذكّر أنّني رأيتها سعيدة مُذ أنجبت طفلها السادس، وقد كانت يومذاك حاملًا بالطفل العاشر. أتذكّر أيضًا دهشتي من الشعب المصري الذي خرج

باكيًا يطلب من قائده المهزوم أن يتراجع عن استقالته. أعترف، فكّرت آنذاك، كنت معجبًا بعبد الناصر، الذي لا يمكن إنكار وطنيته وحماسته القومية ونيّاته السليمة التي بدأ بها فترة حكمه. لكنّني، مع ذلك، لم أفهم كيف نسي المصريون خديعة النظام لهم بالأكاذيب طيلة أيّام الحرب وخرجوا يطالبون بعودة الرئيس الذي خدعهم، أو في الأقلّ، ترك رجاله يخدعون شعبه.

خلال أيّام الفخر تلك تغيّر شيء ما في قلبي، واقتنعت بكلام مسيو مارسيانو، مندوب وكالة الهجرة الذي أقنع قبل سنوات إخوتي بالالتحاق بأرض الميعاد، فقرّرت توجيه دفّتي نحو الشرق وطمعت في مستقبل زاهر في أرض إسرائيل. لكنّني كنت مخطئًا. الأرض الموعودة لم تكن أرضًا موعودة لنا نحن اليهود ذوي الأصول العربية. سنواتي الستّ في إسرائيل لم تكن كما تخيّلت قَطّ. أمضيت عامين في قرية الشباب الدينية، وعامين ونصفًا مجنّدًا في الجيش، وعامًا أجترّ فيه أحزاني بعد إصابتي في الحرب.

هروبي إلى فرنسا، بعد ذلك، كان محتومًا. وصلت إلى فرنسا متأبّطًا مخطوط رواية ومستعينًا بعصًا أتوكّأ عليها لتخفيف آلام عرج مزمن، عمَّر معي سنة كاملة، بعد أن فشل الأطبّاء في إسرائيل في علاجي منه إثر إزالة شظيّة كبيرة انغرست في فخذي في اليوم الثاني من حرب يوم الغفران. قال لي طبيب متقدّم في العمر جاء من ألمانيا أنّ سبب عرجي غالبًا نفسيّ، وليس ثمّة أيّ سبب عضوي لذلك. قلت أنّني سأطلب رأيًا ثانيًا في فرنسا. تلك كانت حجّتي بين أصدقائي، ومعهم مخبرو الشاباك، مع حجّة البحث عن ناشر لروايتي المكتوبة بالفرنسية، حتى أسافر إلى فرنسا. لم أخبر أحدًا بأنّني لا أنوي العودة إلى إسرائيل. أبدًا.

«مرحبًا بك في فرنسا»، قال لي ضابط الجوازات في مطار شارل ديغول، بعد أن تملّى طويلًا في شعر رأسي الأبيض غير المتناسب مع سنوات عمري ثمّ نحت على شفتيه ابتسامة مرسومة بدقّة وأعاد إليّ جواز سفري بعد أن ختمه بتاريخ الوصول.

دهمتني رجفة قوية فتهاويت على أقرب مقعد في صالة الوصول وتنشّقت بعمق عبق هواء المطار النقي والبارد لدرجة تبعث على الكآبة. إنّها المرّة الثانية لي في فرنسا. الهواء هذه المرّة مختلف، في هذا المطار الحديث الذي لم يمض على افتتاحه غير سبعة أشهر، ولا يشبه عبق الهواء المختلط برائحة السمك في مارسيليا التي مررت بمينائها قبل سبع سنوات في طريقي من المغرب إلى إسرائيل. كان معي يومذاك مرافق من وكالة الهجرة وأطفال آخرون. أمّا اليوم، فلا أحد معي. وحدي في المطار الباريسي أتوكّأ على سنوات سبع من الخيبة والندم.

بعد الرجفة، دهمتني نوبة صداع قوية. أغمضت عينيّ وعضضت شفتي السفلى مانعًا الصرخة أن تنفلت من فمي. حاولت تدليك صدغيّ سعيًا إلى التغلّب على الألم. لا فائدة. لقد تأخّرت وها هي ذي شذرة أخرى من ذكريات الحرب تهجم عليّ كما يحدث مع كلّ نوبة صداع. مرّ عام كامل على أحداث الحرب، ورغم أنّ مشاركتي كانت محدودة جدًّا إلّا أنّ الصداع لازمني بعدها، كما العرج، وكانت كلّما دهمتني نوبة صداع، كانت تلقي عليَّ شظيّة ثقيلة لذكرى عشوائية من الذكريات التي لم أسع إلى تذكّرها.

أعادتني الذاكرة تلك المرّة إلى الصباح التالي ليوم النفير. يوم وصلت إلى الجبهة، وكانت كلّ قوّات الاحتياط قد التحقت بمراكزها. كانت مهمّتي، رفقة الكتيبة، توفير الدعم لحماية مركز اتّصالات ومخزن ذخيرة في ممرّ حيوي في سيناء. لكن، مجرّد وصول الكتيبة،

في اللحظة التي نزلنا من الشاحنة، سمعت هدير الطائرات المصرية، المنخفضة جدًّا، ورأيت قنابلها تهوي علينا مباشرة. آخر ما رأيته كان كتلة من اللهب تنطلق من المركز الذي ذهبنا لحمايته، ثمّ وجدت نفسي أطير إلى الخلف أمتارًا قبل أن أسقط على الرمال الصلبة. أغمضت عينيّ وفتحتهما فورًا. شعرت بهدوء مباغت وراحة كبيرة. لكنّني لم أرَ شيئًا. كان الظلام دامسًا، بل كان الظلام كتلة مجسّدة فكّرت في أنّني قادر على إمساكها بيدي. رمشت كثيرًا ودرت حول نفسي أكثر من مرّة قبل أن أرى نقطة ضوء تقترب. تقترب وتتّسع حتى بدت لي أخيرًا نفقًا مضيئًا يقود إلى مكان ما. لا أتذكّر أنّني جزعت أو تردّدت، بل خطوت بثقة نحو نفق الضوء، وبغتة وجدت نفسي داخل غرفة مشعّة بالبياض (يا إلهي، كأنّها الغرفة ذاتها!). كانت الخالة ميمونة هناك، جالسة على طرف سرير، تبتسم. أشارت لي بالاقتراب. أمسكت بكفّي وأجلستني جانبها. ربّتت خدّي وابتسمت ابتسامتها الحنون التي لا تخلو من حزن عشّش في أوصالها طيلة سنوات. قالت لي من دون أن تحرّك شفتيها: «ولدي، منذ اليوم أنت خليفتي». لم يتسنَّ لي أن أسألها عن قصدها، فقد شعرت بقوّة رهيبة تضغط عليّ. شعرت بأنّني أنسحق، وصرخت. فتحت عينيّ وصدى صرختي ما زال يتردّد في أذنيّ. وجدت نفسي آنذاك في المستشفى العسكري في تلّ أبيب، وقيل لي أنّ الحرب قد وضعت أوزارها.

بعد أن استيقظت يومذاك في المستشفى العسكري شغل بالي أمران اثنان لا غير؛ أوّلًا، الشلل الذي شعرت به في فخذي، وعدم قدرتي على السير باتّزان بسبب عملية إزالة الشظيّة الكبيرة من مخلّفات الانفجار، التي انغرست في فخذي. وثانيًا المفاجأة التي استقبلتني بها مرآة الحمّام حين ذهبت إليه أوّل مرّة بعد الاستيقاظ.

أعتقد أنّ كلّ نزلاء المستشفى وزوّاره سمعوا ذلك المساء صرختي المذعورة، صرختي المجنونة. صرختي الحيوانية.

«سيّدي، ما الخطب؟».

جاءت إحدى الممرّضات على عجل وسألت السؤال وهي تتلفّت في أرجاء الحمّام وتنظر إلى جسدي الذي بدا لها سليمًا.

انعقد لساني وانحبس الكلام. أشرت بإصبعي إلى شعر رأسي، الذي صار أبيضَ. أبيضَ تمامًا كقطن ثلجي.

ابتسمت الممرّضة وتقدّمت تتأبّط ذراعي وتعيدني إلى الفراش.

«لا داعي للقلق. الحرب تفعل ذلك، وأنت لست الأوّل ولا الأخير. ليس في الأمر ضرر على صحّتك».

«ولكن»، لم أقوَ على الاستمرار واقفًا فتهاويت على السرير.

«كيف حدث هذا؟».

«يمكنك أن تسأل الطبيب لمعلومات أدقّ. لكن باختصار، يمكن في حالة الفزع والشدّ العصبي أن يفرز الجسم مباشرة في الدم إنزيمات سريعة الانتشار قادرة على أكسدة الميلانين في الشعر بسرعة خارقة. هل تعلم أنّ ماري أنطوانيت ابيضّ كامل شعرها خلال الساعات التي سبقت اقتيادها إلى المقصلة، أثناء الثورة الفرنسية، لدرجة أنّهم لم يتعرّفوا إليها؟» هزّت الممرّضة كتفيها وضحكت ضحكة خفيفة، «الآن صار التحوّل المفاجئ للون الشعر إلى الأبيض مرضًا يسمى متلازمة ماري أنطوانيت».

أتذكّر هاجسًا ضبابيًّا فكّرت فيه آنذاك. لم أكن مطمئنًّا لفكرة أنّ شعري ابيضّ بسبب أهوال الحرب.

هروبي إلى فرنسا، بعد ذلك، كان حتميًّا. حصلت على الإجازة في الآدب الفرنسي. اشتغلت في الصحافة وترقّيت حتى صرت مسؤولًا

عن قسم الكتب في صحيفة لوموند العريقة. بنيت شبكة علاقات كبيرة، كتبت رواية أحسبها مهمّة، ثمّ اصطدمت بفرانز غولدشتاين، ممثّلًا فسادَ عالم النشر، بعد ذلك... لا علم لي بما حدث بعد ذلك. توقّف تدفّق تيّار الوعي وما عاد شيء يحضرني الآن. ذاكرتي فارغة تمامًا من أحداث تلك المرحلة. لا أتذكّر شيئًا، ولم أعد عارفًا حتى من أنا. يسكنني شعور عجيب بأنّني قشرة خارجية مجوّفة لا شيء داخلها. عاد الشعور يلحّ عليّ من جديد. هاجس أنّني شخصية غير حقيقية. شخصية روائية مسطّحة، شخصية من حبر ابتكرها كاتب ما. هل أنا حبيس العالم الداخلي لرواية ما؟

حسنًا، فلتكن هذه رواية، لكنّ هذا لن يعني إطلاقًا أنّني مجرّد شخصية روائية. حتى لو كانت هذه رواية، لو كانت حياتي رواية، لكان العالم الخارجي، عالم القارئ الذي يقرأها الآن أو الكاتب الذي ما زال يسوّد صفحاتها، قد يكون هو ذاته عالمًا داخليًّا حبيس كتاب ما. إذا كنت تؤمن بوجود خالق للكون، إذا كنت معتنقًا أحد الأديان السماوية، فإنّك بالتأكيد شخصية في عالم حبيس في كتاب الخلق. قال الربّ كلمته وقال الله كن فكان كلّ شيء وسُطّرت تفاصيل القدر كاملة في اللوح المحفوظ. أيضًا، لا فرق بين أن نكون نتاج خلق إله أو تجربة علمية تقوم بها كائنات من الفضاء الشاسع كما نقوم نحن (وأنتم؟) بتجارب مزرعة بيتري، أو أن نكون محض خيال ابتدعته روبوتات لتشغيل بطّاريات تمدّها بالطاقة. معتنقو الإلحاد يعتمدون أساسًا على نظرية المصادفة. هذا الكون، ونحن ضمنه، هو نتاج عوامل عشوائية مختلفة متعدّدة. بصيغة أخرى، الوجود هو مجرّد مصادفة لا دخل لها بإله خالق. لا أعرف كيف أنّ تلك العقول العظيمة التي أنتجت تلك النظرية لم تنتبه إلى أن منطق المصادفة نفسه صالح لتأكيد وجود الله. يمكن القول أنّه، نتيجة لعوامل محض عشوائية،

في كون خارج إدراكنا، نتج، بطريقة لا يمكننا إدراكها، كائن خارق امتلك القدرة فخلق كوننا وخلقنا وأمرنا بعبادته. لا يهمّ إن سمّيناه ربًّا أو يهوه أو الله، أو سمّيناه كاتبًا. في النهاية، نحن مخلوقات متواضعة لكائن أقوى منّا صنعنا بمشيئته كما شاء هو، ولا يبدو أنّه ترك لنا هامش حرّية يكفي لنخرج من العذاب الذي سلّطه علينا. فلتكن هذه حكاية في رواية أو حكاية في اللوح المحفوظ، لا فرق. إنّها حياتي في كلّ الأحوال.

ثمّ...

ثمّ، نمت واستيقظت.

سأكتفي بتلك الجملة المقتضبة لأنّه ليس لدي بديل منها. في الحقيقة هي تلخّص الأمر تمامًا. لا أذكر متى نمت، ولا أعرف أين أنا. حين استيقظت من حلم ضبابي ووجدت نفسي في هذه الغرفة البيضاء الغريبة حسبتني استيقظت من حلم ودخلت في آخر فورًا، أو كأنّني كنت أحلم داخل حلم. سحبت جسدي إلى الكرسي المتحرّك ودفعته أتلمّس جدران الغرفة فوجدتها تتمدّد تحت ضغط أصابعي. ضغطت بقوّة أكبر بكامل قبضتي فتمدّد نسيج الجدار بليونة كاملة، وعاد إلى مكانه تمامًا كما كان مجرّد أن سحبت يدي التي لم تستطع استشعار مكوّناته الأصلية. لفتت نظري كومة الأوراق المسوّدة على المكتب الصغير. هذا خطّي بكلّ تأكيد. بدأت القراءة مندهشًا ممّا يبدو أنّني كتبته أمس قبل نومي، وحين وصلت إلى آخر السطر كانت الرغبة المحمومة، وغير المبرّرة التي لم أجد لها سببًا منطقيًّا، قد عاودتني، مرّة ثانية في ما يبدو، فجلست إلى المكتب وأمسكت القلم لأواصل الكتابة، بادئًا بلحظات اندهاشي حين استيقظت هذا الصباح هنا لا أتذكّر شيئًا، منتقلًا بعد ذلك إلى آخر ما أتذكّره من الحلم الذي استيقظت منه.

حلمت أنّني فتحت عينيّ فوجدت غشاوة من ضباب تحجب عنّي وضوح الرؤية. شعرت بنفسي مستلقيًا لا أقوى على الحركة. سمعت أزيزًا رتيبًا مألوفًا، ورأيت إلى يميني أسلاكًا متداخلة وشاشة رصد تظهر فيها منحنيات كثيرة متعدّدة الألوان أحيانًا وعلى شكل ومضات بيضاء في أحيانٍ أخرى. شعرت بضغط خفيف على يمناي، فالتفتّ ورأيت شبحًا ضبابيًّا. رمشت بعيني أكثر من مرّة حتى صارت ملامح الخالة ميمونة واضحة لي. رأيت شفتيها تتحرّكان ثمّ سمعت صوتها آتيًا من أعماق بئر سحيقة يصل قعرها، لا شكّ، إلى مركز الأرض. «عَمران؟ عمران يا ولدي، هل تسمعني؟» ثمّ استيقظت من النوم.

ليس لـديّ تفسير لهذا الحلم. أردت فقط أن أسجّله حتى لا أنساه ولكي أعود إليه في ما بعد. ولمناسبة الحديث عن التذكّر والنسيان وألاعيب الذاكرة: أوّلًا، لا أعرف من هي إيمان تلك التي قلت أنّني أحببتها. إنّها قصّة خيالية تمامًا، لعلّها ذكرى شخص آخر. كنت طفلًا آنذاك ويفترض أنّني رحلت إلى إسرائيل قبل أن أكمل سنّ الثامنة عشرة.

توقّف القلم عن التحرّك. ثمّة خاطر مريب يشغل بالي. فكرة ما تحاول أن تطلّ برأسها وتجاهد لاختراق الستارة السميكة التي تحجب ذكرياتي. ضغطت جفنيَّ وحبست أنفاسي. أحسست بالفكرة تدفع رأسها وأحسست بالغشاء الأسود يتمدّد. قاومت التقاط الهواء، رغم احتجاج رئتيّ وانقباض قلبي المؤلم، وضغطت صدري بذراعيّ المضمومتين. اخترقت الفكرة الغشاء وواصلت تقدّمها. لم يبق الكثير على اكتمال مخاضها. ضغطت صدري أكثر وعضضت شفتي السفلى، فاندفعت الفكرة مخترقة الحجاب الحاجز وفتحت عينيَّ وشهقت بملء فمي وأنفي.

كانت شهقةَ دهشة أكثر ممّا كانت شهقة جوعٍ للهواء. فالكتلة الجنينية التي فرّت من سجن ذكرياتي المسيّج بستارة كثيفة السواد كانت ذكرى أخرى. ذكرى تعارض تمامًا وتنقض ما تذكّرته من قبل عن الحرب. أنا لم أشارك في حرب يوم كيبور، تقول هذه الذكرى. لم يكن مسموحًا لي بالمشاركة. لم يكن الموساد يثق في ولائي. هذا ما أتذكّره الآن، لكن هي ذاكرتي حقًّا؟ الشظيّة التي اخترقت فخذي الأيسر جاءت من حادثة سير تعمّدتها عن سبق إصرار مباشرة بعد انتهاء حرب أكتوبر. لم أكن قادرًا على البقاء في إسرائيل. لم أكن قادرًا على مواصلة أداء دور الجاسوس. لكن، لم يكن مسموحًا لي بمغادرة ذلك العالم الموسوم بالخيانة وانعدام الثقة. كان الليل في بدايته، وكنت هائمًا في خواطري أبحث عن مخرج من المستنقع الذي غرقت فيه. كانت إشارة المرور في طور التحوّل من البرتقالي إلى الأحمر، وحين هممت بخفض السرعة والتوقّف خطر لي أن أفعل العكس. أن أضغط دوّاسة الوقود وأندفع بسيّارتي، سيّارة توزيع الصحف، بكامل السرعة الممكنة. فعلت ذلك من دون تردّد، ومن الشارع الفرعي إلى يساري، حيث الإشارة الخضراء، اندفعت سيّارة دفع رباعي، يخرج منها صوت هتاف شباب تعتعهم السكر مبكرًا، بسرعة لا تقلّ عن سرعتي، وكان الصدام الحتمي. فقدت الوعي وحين استيقظت بعد أيّام علمت أنّ جزءًا من الباب اخترق فخذي. أُجرِيَت عملية استخراجه بنجاح، من دون أيّ ضرر. إلّا أنّني لم أعد قادرًا على تحريك قدمي اليسرى. القدم شلّت تمامًا، وحار أطبّاء إسرائيل في علاجها. تلك كانت الفرصة التي أحتاج إليها، لأتقدّم بطلب إعفائي. حصلت على الموافقة، وبقيت أشهرًا قيد المراقبة الدقيقة. تقدّمت بطلب السفر أكثر من مرّة ولم يوافَق عليه إلّا في المرّة الخامسة.

عدت وأمسكت القلم ودوّنت تلك الذكرى الغريبة التي تدفّقت إلى وعيي. تبدو مناقضة تمامًا لما تذكّرته سابقًا، ولا أملك الآَن أن أدقّق فيها. تذكّرت أيضًا تفاصيل لم يفلح التداعي الحرّ أمس باستدعائها (هل هو الأمس؟)، عن موعدي مع مسيو فرانز غولدشتاين: حين نهضت لأغادر المكان، وفيما أنا أهمّ بوضع ثمن وجبة الغداء على الطاولة، مدّ فرانز يده وقبض على يدي بعنف. ما زلت أشعر حتى اليوم بألم في يدي من تلك القبضة الحديد. نظر إليّ بعينين تقدحان شررًا، وأشار لي أن أجلس.

«قبل أن تغادر دعني أبُحْ لك بسرّين»، ورفع إصبعين من أصابع يده الحرّة مؤكّدًا: «سرّين اثنين!».

رضخت وجلست. شمّر عن ذراع قميصه وأشار إلى الرقم الأخضر الموشوم على الجانب الخارجي من ساعده اليُسرى. تأفّفت في سرّي، ها هو سيعود مجدّدًا لبكائيته المعتادة عن سنوات اعتقاله في أوشفيتز وخسارته كاملَ أفراد عائلته في غرف الغاز.

«قرأت كتابي عن مأساة عائلتي، وكيف كنت الناجي الوحيد من الهولوكوست؟».

أومأت أن نعم، من دون أن أستوعب علاقة معتقلات النازيين بموضوع جائزة الرواية.

«كلّ ذلك كذب».

نظرت إليه غير فاهم، ولا شكّ في أنّ عينيّ الغارقتين في ضباب الحيرة أمتعتاه فأطلق ضحكة مجلجلة وأعاد تزرير كمّ قميصه.

«كلّ ما حكيت عنه في الكتاب كذب. أنا لم أمض دقيقة واحدة في أيّ معتقل ألماني». كأنّ المفاجأة لم تكن كافية، فتابع باستمتاع لم يحاول إخفاءه. «أمّا أفراد عائلتي فقد قتلتهم بنفسي»،

ورفع كفّيه في الهواء وقطّب حاجبيه، «قتلتهم بيديّ هاتين، واحدًا واحدًا». ندت عنّي شهقة مكتومة وابتلعت ريقي بصوت مسموع.

عاد فرانز ليسند ظهره إلى الكرسي، عقد ذراعيه على صدره، وضع ساقًا على أخرى، ورأيت بسمة، شيطانية لا شكّ، ترتسم على وجهه. رفعت كفّي إلى فمي أخفي شهقة ثانية كادت تنفلت مع مرور رجفة باردة من عنقي إلى أسفل ظهري. حرّكت رأسي بعنف، يمينًا ويسارًا، رافضًا التصديق.

«لا، هذا غير ممكن. أنت تكذب. أنت تريد إخافتي ليس إلّا».

البسمة الشيطانية نفسها، الواثقة، تتّسع وتتّسع حتى تتحوّل إلى ضحكة مجلجلة أخرى استدعت التفات روّاد المطعم الآخرين إلينا.

«يمكنك ألّا تصدّق»، قال فرانز وهو يدلق ما تبقّى من النبيذ في حلقه، ثمّ نظر إلى ساعة يده ومطّ شفتيه. بدا أنّه سيقول شيئًا مختلفًا ثمّ غيّر رأيه وعاد إلى موضوعه.

«وأظنّك لن تصدّق بسهولة، وأنت ترى النعيم الذي أعيشه الآن، كيف كانت طفولتي مأسوية، وكيف كنت أعيش في الحرمان».

لا أصدّق أنّني رأيت غمامة دمع وحزن تمرّ في عيني فرانز، لكن يبدو أنّه كان فعلًا حزينًا في تلك اللحظة، أو لعلّه، وهذا ليس بغريب عنه، كان ممثّلًا بارعًا. في لحظة، وجدتني مستعدًّا لتصديقه، ثمّ تذكّرت محاولته رشوتي وتهديده المبطّن لي، فتمالكت نفسي وأنا أستمع لحكايته غير قادر على تصديقه تمامًا.

قال فرانز أنّ والده كان سكّيرًا، حيوانًا قذرًا. حسنًا، اعترف فرانز، لم يكن والده سيّئًا منذ البداية. يتذكّر فرانز سنوات من المرح والسعادة قبل أن يبلغ العاشرة من عمره. لكن في مرحلة ما تغيّر شيء ما، وتحوّل الأب إلى مقامر سكّير يضرب زوجته ويسيء معاملة صبيّه

الوحيد، كما يقسو بلا هوادة على البنتين التوأمين الأكبر من فرانز. لم يفهم الفتى سرّ تحوّل والده، لكنّ الذي لم يفهمه أكثر هو تقبّل والدته تلك المهانة التي تواصلت سنوات، وقد كان بإمكانها ألّا تصمت، أن تستعين بسلطة عائلتها وقوّة إخوانها، لكنّها لم تفعل. وكذلك صمتت الفتاتان عن الإساءة الشنيعة التي كانتا تتعرّضان لها في بعض الليالي. كان فرانز يسمع في بعض الليالي تأوّهات إحدى الأختين والبكاء الصامت الذي تخرسه صرخات الأب الذي ما عاد يخاطب البنتين إلّا بابنتي الحرام، والأمّ بالعاهرة. كان فرانز يعتقد أنّ الأمر مجرّد سباب رجل مخمور، إلى أن استيقظ ذات ليلة لإفراغ مثانته الممتلئة فسمع صوت بكاء أبيه في الحمّام، ومناجاته مع نفسه. عندذاك، صعق فرانز من هول ما سمع، وفقد سيطرته على مثانته التي أفرغت نفسها في الرواق خارج الحمّام. جرى فرانز إلى غرفته الصغيرة في علّية البيت، وارتمى، بمنامته المبتلّة، على الفراش يرتجف، وبقي يرتجف طيلة الليلة، وبقي في الفراش محمومًا أيّامًا عدّة، رأى فيها، حسبما يقول، أشنع الكوابيس، التي كانت في مجملها تنويعات مختلفة للكابوس نفسه. يرى نفسه مقيّدًا على مذبح حجري، تدور حوله ذئبة ضخمة بضع دورات ثمّ تأتي ضبعتان وتبدآن تشمّم مؤخّرة الذئبة ثمّ تتشمّم الذئبة مؤخّرتيهما، وبعد ذلك تبدأ الحيوانات الثلاثة الاستقامة وقوفًا ويرى فرانز المقيّد تحوّل الذئبة إلى أمّه والضبعتين إلى أختيه، ثمّ يأتي خنزير ضخم يتهادى في مشيته كسكران إلى أن يصل إلى قدمي والدته، حيث يتمسّح بهما وبعد ذلك يستقيم لتتغيّر هيئته إلى والده، ثمّ يبدأ الأربعة رقصة شهوانية تنتهي بتمزيق أربعتهم ملابسَهم حتى العري الكامل، ثمّ يحمل الأب سكّينًا من الأرض ويرفعه بكلتا يديه ويغرسه بقوّة في قلب فرانز المقيّد، عندئذ يستيقظ الفتى من نومه ويعود جسده إلى رجفته.

يقول فرانز أنّه خلال أوقات اليقظة بين الكوابيس قرّر ما سيفعله. فكّر بدقّة كبيرة وخطّط لكلّ التفاصيل، ثمّ بدأ التنفيذ بعد أيّام.

كان والد فرانز من اليهود الألمان القلائل الذين احتفظت بهم المصانع الألمانية بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، في وقت كانت عمليات التهجير التي تقوم بها الحكومة في أوجها لطرد اليهود من ألمانيا.

الخطوة الأولى كانت إرسال الأب إلى أحد المعتقلات النازية.

بطريقة ما لم يوضّحها فرانز، الذي كان في السادسة عشرة من عمره آنذاك، تمكّن من الوصول إلى دائرة الروّاد، المجموعة الصهيونية السرّية التي كان من أنشطتها تزوير الأوراق لمساعدة اليهود المختبئين في برلين على الهروب، وحصل لنفسه ولأبيه على أوراق خروج إلى فرنسا.

ما فعله فرانز بعد ذلك كان بالغ الوحشية. خبز الكعك الشهي الذي لا تقاومه أختاه، ودسّ فيه كمّية كبيرة من سمّ الفئران وبالغ بالمحلّيات لإخفاء الطعم. لم تنتبه الأختان إلى بعض الغرابة في طعم الكعك إلّا متأخّرتين، وحين بدأتا تقيّؤ دمائهما والتلوّي أرضًا، أقفل عليهما فرانز باب المطبخ وصعد إلى غرفة والديه، حيث لقي والدته عند الباب تستعدّ للنزول لاستطلاع أمر الصراخ الآتي من المطبخ. لكن، ما إن فتحت والدته فمها لتسأل حتى صوّب إلى وجهها بخّاخة العطر التي في يده. أحرق العطر المركّز عينيها واستنشقت مرغمة كمّية كبيرة منه. صرخت متألّمة، فعاد فرانز إلى رشّ كمّية أكبر مباشرة إلى فمها وأنفها لتزيد الكمّية التي تنشقّتها الأمّ ويختلّ توازنها. دفعها فرانز لتسقط، وعاد إلى رشّ كمّية أخرى من الرائحة المركّزة فغالبها الدوار مع دهشة الهجوم المباغت من

ابنها، لتغيب عن وعيها ثوانيَ كانت كافية ليحملها فرانز إلى الفراش ويمزّق ملابسها.

تقلّصت ملامحي اشمئزازًا ممّا يحكي فرانز، ولم أستطع تصديق أنّ ما يقوله حقيقي. تجاهل فرانز اشمئزازي الظاهر وواصل يقول أنّ الأمّ حين عاد إليها وعيها وجدت ابنها فوقها يضغط بكلتا يديه على عنقها وهو يصرخ بجنون: «خذي أيّتها العاهرة. خذي». بقي فرانز يطبق على عنق والدته بقوّة متزايدة ومقاومتها تتناقص باستمرار دقائق امتدّت ربع ساعة أحسّ بها أعوامًا وأعوامًا، حتى استكان جسد والدته تمامًا وخمدت حركته. قام فرانز لاهثًا، وعدّل ملابسه. عند باب الغرفة، توقّف وسقط على ركبتيه يجهش بالبكاء، من دون أن يستدير جهة الفراش.

بعد ذلك، سكب ليترات الكروسين التي وجدها في البيت، في أماكن مختلفة، وفتح أنبوب الغاز في المطبخ إلى آخره، وألقى قبل خروجه عود ثقاب مشتعل، وقبل أن يصل إلى نهاية الشارع كان البيت قد تحوّل إلى كتلة مشتعلة من اللهب.

توجّه فرانز مساء ذلك اليوم إلى مكتب طبيب قريب من الحيّ تشتغل فيه أخت صديق له سكرتيرةً. طلب منها أن يستخدم الهاتف لأمر طارئ، وأرفق طلبه بابتسامة سحرية تذوب لها السكرتيرة، التي تكبره أعوامًا، وتحقّق له كلّ ما يريد، من دون أن تنتبه إلى الرقم الذي ركبه ولا لحديثه. اتّصل بالغستابو وأخبرهم عن يهودي في مصنع ألماني عضو في دائرة الروّاد.

لاحقًا، في ذلك المساء، وبينما بدأ فرانز رحلة هروبه إلى فرنسا، كان رجال الغستابو يحملون والده خارج المصنع بعد أن وجدوا في جيب سرّي في معطفه أوراق سفر بصورته وباسم غير اسمه اليهودي.

دخل فرانز باريس قبل ثلاثة أشهر من غزو ألمانيا فرنسا. انضمّ إلى المقاومة السرّية، ومن خلال المعارف الذين كسبهم هناك، والأشخاص الذين تعرّف إليهم، استطاع بعد نهاية الحرب وشم نفسه ادعاءً بأنّه ناج من معتقل أوشفيتز، ومن خلال القصص التي سمعها لاحقًا من ناجين آخرين، ألّف كتابًا ادّعى أنّه سيرته يحكي فيه كيف قاد النظام النازي عائلته إلى غرف الغاز، وكيف نجا بفضل قدرته على الصبر والتحمّل، وبفضل ذكائه الحادّ.

انتهى فرانز من حكايته من دون أن أستطيع دفع نفسي لتصديق كلّ ذلك الهراء الذي نطق به. كنت أعتقد أنّه لم يقل ما قاله إلّا لإخافتي، وبأنّه ليس بذلك الشرّ حقًّا، كما أنّ قصّته مليئة بالثغرات التي لم تكن لتسمح له فعلًا بالنجاح في خداع العالم بكتابه لو لم يكن حقيقيًّا. لكنّني كنت مخطئًا، في الأقلّ في جزئية خداع العالم. سأعاني لاحقًا من عبقريته في التزييف، وسأعرف كم يسهل خداع الآخرين بقصص وهمية على أنّها حقائق مجرّدة. سأعرف كيف أنّه من السهل تزييف التاريخ وتوجيه الجماعات بأوهام مزيّنة بحقائق جزئية. سيموني سيمونيني، مثلًا، كان بارعًا في ذلك إلى أقصى حدّ وخدع العالم كلّه بأكذوبة صارت تعرف بـ«بروتوكولات حكماء صهيون»، التي بنى عليها هتلر مبرّراته الأخلاقية (اللاأخلاقية؟) بإبادتنا من على وجه الكوكب.

تقول الحكاية، التي حقّقها الإيطالي أمبرتو إيكو: تربّى الكابتن سيموني على كره اليهود وبغضهم منذ صغره، وهو ما دفعه إلى أن يختلق فكرة وثيقة عن اجتماع سرّي عقده رؤساء الطوائف اليهودية في مقبرة براغ المهجورة. نتيجة الاجتماع، الوهمي، كانت الوثيقة التي ستعرف باسم بروتوكولات حكماء صهيون، وفيها ضمّن سيموني كلّ أفكاره القاتمة والمغلوطة عن اليهود. اختلق فيها الكثير من

الأوهـام وخلط بها بعض الوقائع الحقيقية لما كان يقوم به اليهود في عصره حتى يضيف الصدقية إلى وثيقته المختلقة التي تهدف إلى تكليب العالم على اليهود، بدفعهم إلى الاعتقاد والتصديق أنّه لا عمل لليهود إلّا التخطيط للسيطرة والهيمنة على العالم. وقد نجح في مهمّته حين اقتنع هتلر بصحّة تلك الوثيقة وقرّر إبادة اليهود من على وجه الأرض، بجانب الأعراق الأخرى التي كان يراها من دون مستوى العرق الآري.

لم أصـدّق أنّ فرانز يمكن أن يكذب بخصوص أمر شنيع مثل الهولوكوست. كيف وجد القدرة على أن يحرق عائلته ويسرق قصّة معاناة عائلة أخرى وينسبها إلى نفسه؟

أتـذكّر بوضوح تـامّ صفعة المدير في المدرسة الدينية يوم أخبرني بقصّة الهولوكوست التي لم أكن قد سمعت بها من قبل. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا ببضع دقائق حين سمعت أوّل مـرّة بالهولوكوست. أتـذكّر جيّدًا. كـان تاريخ الـيـوم، السابع والعشرين من نيسان العبري. السابع عشر من أبريل 1969. يومذاك، نلت صفعتي الأولى من مدير القرية أبراهام يوجين ميكايليس.

بعد أيّامي الأولى المريرة في المدرسة، في القرية الدينية التي وجدت نفسي فيها من دون إرادة منّي، بدأ مدير القرية يتقرّب منّي، محاولًا التخفيف عنّي، خصوصًا بعد وفاة الصبي كوهين الذي وصل معي. ذات مرّة، استدعاني للعشاء معه وزوجته الجميلة إيفا، وكثيرًا ما كان يصحبني في جولات عبر حقول القرية وهو يحدّثني بالعبرية، ببطء، وأحيانًا بفرنسية ركيكة مشوبة بلكنة ألمانية. حكى لي كيف أسّـس الـمـدرسة في هـذه القرية وحـدّثـني عـن فلسفته ليقنعني بأهمّيتها في تلقين الأطفال الدين والتاريخ إلى جانب أعمال الزراعة لتكوين مواطنين صالحين قادرين على بناء إسرائيل. كان يركّز على

تنشئة الأطفال بشكل يعلّمهم الاستقلالية والاعتماد على الذات، وكل ذلك كان تماشيًا مع تعاليم الربّ. أمّا في ذلك اليوم المشهود، فقد كان يحكي لي بالعبرية ملخّصًا عن قصّة أليس في بلاد العجائب حين دوّت فجأة الصفّارات فصمت وتجمّد في وقفته. لاحظت أنّ الآخرين المتفرّقين عبر الساحة توقّفوا جميعهم وانتصبوا. فعلت مثلهم من دون أن أفهم. استمرّ دويّ الصفّارات مدّة دقيقتين، بعد ذلك عمّ السكون. صمت جميل لم أشعر به من قبل. نظر إليّ أبراهام ورأى الحيرة في عينيّ. كنت أناديه في البداية مسيو يوجين لكنّه صرخ في وجهي أكثر من مرّة. «دع عنك تلك التقاليد الفرانكوفونية العفنة. الاحترام هنا أن تنادي كلّ شخص باسمه وليس بلقبه العائلي»، كان يقول.

«إنّه يوم هشوآه»، قال. لم تنقص حيرتي بل زادت. ضيّق أبراهام حدقتيه: «إنّه يوم الهولوكوست. في الساعة العاشرة من صباح السابع والعشرين من نيسان، نتوقّف دقيقتين صمتًا، لنتذكّر المحرقة وبطولات اليهود. الهولوكوست أمر يجب ألّا ننساه أبدًا».

«الهولوكوست؟» تساءلت بفضول طفولي. كنت جاهلًا بأمر معتقلات هتلر التي كدّس فيها اليهود وكلّ الأعراق الأخرى التي كان يراها أدنى من عرقه الآري. لم نكن في المغرب قد سمعنا شيئًا عن غرف الغاز والملايين الذين ماتوا في المعتقلات النازية من مختلف الأجناس. شرح لي تفاصيل المحرقة ولم أملك نفسي ونطقت باستغراب، «غير ممكن!» آنذاك، هوت على خدّي الصفعة المزلزلة، وأتبعها بصرخة هادرة: «كيف تجرؤ على التشكيك في الهولوكوست. إيّاك ثمّ إيّاك مجرّد التفكير في ذلك».

لكنّني لم أقصد التشكيك. استغرابي كان بسبب دهشتي من مدى الشرّ الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان.

اغرورقت عيناي وقاومت بصعوبة ألّا أبكي. ربّت المدير كتفي وخفض رأسه: «لا بأس عمران. لا بأس».

كنت قد بدأت أتعوّد على المدرسة بعد أيّام مريرة من المعاناة، لكنّ تلك الصفعة ذكّرتني بكلّ ما مضى وتذكّرت آنذاك بوضوح تامّ يومي الأوّل هناك، وتساءلت مجدّدًا ماذا تراني أفعل في ذلك المكان.

وصلت الشاحنة بعد غروب يوم الخميس، الخامس من سبتمبر 1968، إلى بوّابة المدرسة الداخلية. رأيت الاسم مضبّبًا تحت أضواء الشاحنة، مكتوبًا بلون أصفر على لوحة حمراء اللون. حاولت بصعوبة تهجئة الحروف العبرية، حرفًا حرفًا. نطقت بصوت منخفض وكلمات متعثّرة: «كفار ها... نو... ئا حدتي» فلم يقاوم السائق الضحك، وصحّح لي التهجئة بسرعة لم تسمح لي بالاستيعاب، ثمّ أضاف، بفرنسية ركيكة بالكاد فهمتها بعد أن كرّرها مرّة ثانية: «إنّها تعني قرية الشباب الدينية». لم أتوقّف آنذاك عند وصف القرية بالدينية، ونزلت من الشاحنة بعد أن نزل كوهين، الصبي ذو العشر سنوات الآتي من جبال الأطلس، والذي لم ينطق أيّ كلمة طوال الرحلة من مطار اللدّ. كان الهواء باردًا والسكون يعمّ القرية. الكلّ نيام في ما يبدو، وليس ثمّة إلّا أضواء شاحبة تضيء الطريق الترابي من البوّابة الحديد إلى صفّ المباني ذات الطابق الواحد. شعرت بمزيج من الإثارة مع الخوف، والحماسة مع التوتّر، وشعرت أيضًا بالحيرة. فكّرت في أنّه ثمّة شيء ما خاطئ. لا يفترض أن أكون هنا.

تقدّم نحونا شابّ يبدو في منتصف الثلاثينيّات، أصهب طويل اللحية. رأيت الكيباه على رأسه والسالفين على جانبي وجهه، ففهمت آنذاك، بشكل مفجع، أنّ المشرفين على هذا المكان، الذي قال السائق أنّه قرية الشباب الدينية، هم اليهود الأرثوذكس. نحن في المغرب لم نكن نطيل السوالف ولم نكن نعتمر هذه الطاقية إلّا في الكنيس،

وأحيانًا خلال الاحتفالات الدينية. وحدهم الأرثوذكس يعتمرون الكيباه طيلة الوقت، نهارًا وليلًا. تذكّرت آنذاك مناقشة عابرة في درس الفلسفة في ثانوية المدرسة العبرية، في الدار البيضاء، حين قال لنا أستاذنا مسيو شمعون دنكور، الذي كان يكبر أكبرنا بعدد سنوات لا يحتاج إلّا أصابع يد واحدة لإحصائها، والذي لم يبق معنا سوى بضعة أشهر قبل أن ينتقل إلى فرنسا (قيل أنّ عائلات التلاميذ أصرّوا على طرده بسبب إشهاره إلحاده أمام الأطفال، وأخبرني شمعون في باريس بأنّ الأوامر جاءت من وزارة الداخلية لترحيله بسبب المقالات التي كان يساهم فيها في الجرائد المغربية اليسارية)، أنّه لم يرد في التوراة ولا في أيّ مرجع ديني أصيل أيّ إشارة إلى ضرورة غطاء الرأس. هي فقط عادة اجتماعية أريدَ بها إظهار تمييز اليهود من الأغيار، ثمّ صارت دلالة على التقوى. أمّا رجال اليهود الأرثوذكس فيؤمنون، بحسب فهمهم المتزمّت للهالاخاه، أنّه يحرّم ذكر اسم الربّ على فم من كان مكشوف الرأس.

وضع سائق الشاحنة حقيبتي وحقيبة كوهين جانبنا وهلّل في اتّجاه الشابّ القادم: «شالوم حاييم».

رفع الشابّ الأصهب سبّابته إلى فمه منبّهًا السائق أن يخفض صوته، ثمّ أشار إلى اثنين آخرين يتبعانه بأن يذهبا لإفراغ حمولة الشاحنة، وتقدّم نحو السائق من دون أن يهتمّ بإلقاء أيّ نظرة على الصبيين الجديدين الوافدين من المغرب. أخذ ملفًّا يضمّ في ما يبدو معلومات عنّي وعن كوهين، وبدأ يقرأ البيانات بسرعة ويطابق بين وجهينا والصورتين في الملفّ.

بعد أن نظرت من قرب إلى وجه حاييم، بدا لي أنّه بالكاد في بدايات العشرينيّات من عمره، إنّما اللحية والسالفان تظهره أكبر

من عمره الحقيقي. لا يبدو أنّه يكبرني إلّا بسنوات قليلة لا تصل إلى الخمس سنوات، تمامًا كما شمعون.

طوى الملفّ ووضعه تحت إبطه، واستقام بوقفة عسكرية، وقال بصوت منخفض، لكن صارم، كلامًا ما بالعبرية لم أفهمه. أعرف القليل من العبرية، لكن بسبب التعب ورهبة الموقف غابت عنّي المفردات والمعاني بشكل تامّ. بقيت أنظر إليه بملامح جامدة خالية من أيّ تعبير، في حين اقترب كوهين منّي حتى التصق بي.

قال له السائق كلامًا ما، يخبره فيه على الأرجح بجهلنا بالعبرية.

بدا الامتعاض على وجه حاييم، وتحدّث بلهجة مغربية واضحة كالتي كنت أسمعها في مكناس. «العربية ديالنا» كما كانت تسمّيها أمّي.

عرّف الشابّ عن نفسه قائلًا أنّ اسمه حاييم موردخاي. بدا لي الاسم مغربيًّا جدًّا، لكن يبدو أنّه وصل إلى إسرائيل منذ سنوات عدّة، مذ كان طفلًا على الأرجح، وقد تشبّع الآن تمامًا بتعاليم هذه المدرسة التي صار فيها، حسبما قال، معلّمًا بديلًا لمادّة التاريخ وكذلك مساعدًا لمدير المخازن. قال أنّنا سنتوجّه إلى المهاجع لننام الآن، وفي الصباح سنلتقي من سيشرح لنا تفاصيل الحياة هنا، ومن سيرشدنا لبدء يومنا الأوّل.

سألنا في النهاية عمّا إذا كنّا فهمنا. أومأت برأسي، في حين بقي كوهين صامتًا ملتصقًا بي.

أشار إليه حاييم وكرّر سؤاله. ابتسمت مرغمًا وقلت له: «أعتقد أنّه لا يتحدّث إلّا الأمازيغية».

زمّ حاييم شفتيه وأخرج هواء رئته بزفرة قوية ثمّ أشار إلى أحد الشابّين، طالبًا منه أخذ الصبي إلى مهجع الصغار بعد تفريغ الحمولة كما استنتجت، وأشار لي أن أتبعه.

عبرنا الممشى الترابي وتجاوزنا صفّ المباني المتلاصقة التي تعطي ظهرها للبوّابة الخارجية. قال حاييم أنّ هذه المباني الأربعة هي الصفوف الدراسية. أمامها ساحة مبلّطة بالإسمنت، إلى اليمين ثلاثة مبان عريضة ذات أسقف مغطّاة بالقرميد الأحمر، قال أنّها مهاجع النوم، واحد للفتيات، واحد للذكور الكبار، وآخر مختلط للأطفال دون الحادية عشرة. إلى اليسار مساحة مسيّجة بدت لي ساحات رياضية، قال حاييم أنّها ساحات التدريب لتهيئة الأطفال للخدمة العسكرية. وعلى مرمى البصر مساحة واسعة للمزروعات. القمر كان شبه مضيء بالكامل. يفترض أنّه سيكون بدرًا ليلة الغد. كانت الرؤية واضحة تمامًا. لم أكن أريد التصديق. إنّها فعلًا حقول. وهذا يعني، بحسب الكلام المتقطّع الذي سمعته في مخيّم مارسيليا، محطّة الترانزيت بين المغرب وإسرائيل، حيث بقينا ننتظر الطائرة أسبوعين، إنّ هذه المدرسة الدينية هي مدرسة زراعية أيضًا. بمعنى أنّ التركيز هنا في التدريس ليس على المعارف إنّما على أعمال الزراعة. شعرت مجدّدًا بالحيرة ذاتها، وفكّرت، مرّة أخرى، في أنّ ثمة شيئًا ما خاطئ. لا يفترض أن أكون هنا. ليس هذا ما كنت أريده.

تسمّرت في مكاني وتبلّدت أحاسيسي وتزايدت دقّات قلبي. تقدّمني حاييم بضع خطوات قبل أن ينتبه إلى أنّني ما زلت في الخلف. استدار وقال بصوت حادّ حاول أن يضبط نبرته لكنّه لم يفلح تمامًا في إخفاء غضبه: «هيّا بسرعة، ليس لدينا الليل بطوله». تبعته مرغمًا ولساني ملتصق بحلقي.

دخلنا مهجع نوم الذكور. النور لا يزال مضاء في الممرّ. كانت أبواب غرف مواربة يتسرّب منها الضوء وتخرج منها أصوات منخفضة لشاغلي الغرف. في منتصف الرواق كان ثلاثة صبية متكّئين على جدار يتبادلون حديثًا هامسًا. توجّه إليهم حاييم بخطوات واسعة

وسألهم عن شيء ما. بدأت أسترجع كلمات عبرية أحفظها، واعتقدت أنّه يسألهم عمّا إذا كان ثمّة سرير فارغ في إحدى الغرف. لم أصدّق نفسي وألقيت اللوم على عدم إجادتي اللغة.

رفع أحدهم كتفيه ولم ينبس الآخران بكلمة. عاد حاييم إلى أوّل الرواق وفتح الغرفة الأولى ومدّ رأسه داخلها، ثمّ أقفلها وتوجّه إلى الثانية، وبعد ذلك الثالثة، وواصل الأمر نفسه مع كلّ الغرف. فكّرت آنذاك في أنّني فهمت سؤاله بشكل صحيح. هو فعلًا يسأل عن سرير متاح لهذا الوافد الجديد.

كنت أتبع حاييم جارًّا حقيبتي حتى وصل إلى آخر غرفة. وقفت على أطراف أصابعي ومددت رأسي إلى الأمام. رأيت أنّ الغرفة تضمّ سريرين كلّ منهما بطابقين. أربعة أسرّة نوم مشغولة جميعها. تنهّد حاييم ولفظ كلمة ما بدت لي أنّها لعنة ما أو سبّة. تأكّدت آنذاك أنّ ثمّة خطأ في فرزي إلى المدرسة. هي ليست من النوع الذي طلبته، ولا يعقل أن يؤتَى بي إلى مدرسة مكتملة العدد فعلًا، ولا يوجد فيها سرير فارغ. كم كنت ساذجًا.

طلب منّي حاييم انتظاره وخرج. رأيته من آخر الرواق يتحدّث مع رجل آخر جانب الباب. ذهب الرجل وبقي حاييم ينتظر حتى رجع إليه الرجل بمرتبة حشوتها شبه مهترئة. جرّها حاييم إلى الغرفة الأخيرة وفتح الباب ورماها على الأرضية وسط السريرين ذوَي الطابقين. كان الصوت مكتومًا لكن مع إنارة المصباح استيقظ سكّان الغرفة الأربعة، وبدا الامتعاض واضحًا على وجوههم حين فهموا الأمر. صرخ أحدهم ثمّ تبعه الثلاثة الآخرون ودخلوا مع حاييم في مجادلة بالكاد فهمت منها بضع كلمات. إنّهم يرفضون وجودي بينهم. بالأحرى، يرفضون أيّ ساكن جديد. الغرفة ضيّقة والأسرّة مشغولة، ولا يمكن شغل الأرضية المحدودة بمرتبة إضافية. في النهاية، أكّد حاييم لهم أنّ الوضع

موقّت ووعدهم بأنّه سيعمل مع الإدارة لحلّ الموضوع سريعًا. أو هذا ما فهمته. لم يتقبلّوا الأمر لكن لم يكن أمامهم بدّ من الرضوخ لسلطة حاييم.

أشار لي حاييم أن أدلف. تقدّمت خطوة وبقيت جامدًا جانب الباب أحملق في المرتبة المهترئة الملقاة على الأرضية. لم أكن أفكّر في شيء محدّد، فقط السؤال ذاته كان يتردّد في رأسي كصدى صوت محبوس بين جبلين: ماذا أفعل هنا؟

وضع حاييم يده على كتفي وأخرجني من حلقة السؤال المتكرّر من دون توقف. «هل كلّ شيء على ما يرام؟» سألني بفرنسية بدأت تصدأ من عدم الاستخدام. أردت أن أصرخ في وجهه. وهل هذا سؤال؟ هل كلّ شيء على ما يرام؟ اللعنة، لا شيء على ما يرام. لكنّني خفت أن تخونني عيناي اللتان بدأت أشعر بهما تتضبّبان بالدمع، فحرّكت رأسي حركة بلا معنى. ابتسم حاييم ابتسامة خفيفة. بدأت أسترجع أنفاسي. تنفّست بعمق وقلت بثقة مصطنعة: «أنا بخير».

قلتها بالعبرية وابتسمت.

كنت، رغم كلّ شيء، فخورًا بأوّل جملة فصيحة أنطقها بالعبرية في أرض إسرائيل. في أرض الوطن.

ارتميت على المرتبة حين غادر حاييم، وأغمضت عينيّ حتى لا يتقاطع بصري مع بصر أحد زملاء الغرفة الأربعة الغاضبين من وجودي بينهم.

ما إن ابتعد حاييم حتى اعتدل الأربعة على أسرّتهم، وانطلقوا في مجادلة حادّة لم أستوعب منها سوى كلمات قليلة متفرّقة. راشيل. التأجيل. المبلغ. ثمّ استسلموا وتوقّف جدالهم. مرّت بضع ثوانٍ ثمّ نطق أحدهم.

«بنزونا».

اخترقت الكلمة أذني مع رذاذ لعاب حطّ على وجهي. فتحت عينيّ مرغمًا لأرى ملامح الغضب على شاغل السرير العلوي إلى يميني. نبرة الصوت وملامح الوجه تدلّ على أنّ الكلمة التي تلفّظ بها هي سبّة لا شكّ. لكنّني ابتسمت له ورسمت على وجهي نظرة بليدة. دائمًا أفعل ذلك، أبتسم وأتظاهر بالبلادة في وجه من يسبّني. أتظاهر بأنّني لم أفهم كلمات السباب المستخدم، حتى يشعر السابّ بقلّة الحيلة وبلا جدوى ما يقوله. بتجاهلي أحرمه من المتعة الدفينة التي كان يرجوها.

نفخ صاحب السبّة بغضب وعاد يتمدّد على ظهره. ابتسمت مجدّدًا وأغمضت عينيّ. خلال ذلك كان دماغي يحلّل الكلمة الغريبة، وبدأت أنتبه إلى أنّ الكلمة في الأصل كلمتان. هناك «بن» وهناك «زونا». ثمّ انتبهت إلى التشابه مع العربية وفهمت المعنى. «ابن زنى»، هذا ما قاله. ابتسمت مجدّدًا محاولًا أن أمنع نفسي من الضحك بصوت مرتفع.

بقيت ممدّدًا على ظهري، مغمض العينين، حتى بدأ صوت تنفّسهم ينتظم ففتحت عينيّ. بقيت قليلًا أحدّق في الظلام إلى أن اعتادته عيناي وتوسّع البؤبؤان بما يكفي لاستقبال الضوء الشحيح الآتي من تحت الباب.

شبكت يديّ تحت رأسي، بديلًا من الوسادة غير الموجودة، وبدأت أتفحّص السقف والجدران. رغم الإضاءة الخافتة، فإنّ قشور الطلاء الجيري كانت واضحة في الجدار الأيمن. ثمّة شبكة عنكبوت كبيرة في أقصى ركن الجدار الأيسر مع الجدار الخلفي، والمصباح متدلٍّ من السقف بسلك طويل مضفّر.

مؤكّد أنّ وجودي هنا محض خطأ. سأنتظر الصباح لأرى حلًّا مع الإدارة.

غلبني النوم في لحظة ما، ولم أدرِ كم نمت قبل أن أستيقظ مرعوبًا على زملاء الغرفة يكبّلون يديّ خلف ظهري ويدسّون قطعة ثوب في فمي ويضعون على رأسي كيسًا من الخيش، ثمّ يجرّني اثنان منهم إلى ركن الغرفة. رائحة الكيس كريهة وقطعة الثوب في فمي أثارت فيّ شعور الغثيان. لم أستطع أن أصرخ، لكنّني ركلت بقدمي بضع ركلات خرقاء في الهواء لم تصب أحدًا منهم. لكمني أحدهم في جنبي وهمس في أذني. تحدّث ببطء وأكّد مخارج الحروف حتى أفهمه جيّدًا. قال أنّ من مصلحتي أن أصمت، وأن أغمض عينيّ. سينتهي الأمر سريعًا. وإلّا فإنّ معاملتهم ستكون أسوأ. رضخت ولم يكن بإمكاني ما هو أكثر.

سمعت ثلاث نقرات خفيفة على الباب. فتحت عينيّ يحذوني الأمل بأن يكون حاييم قد عاد. كيس الخيش لم يكن معتمًا تمامًا، وكنت قادرًا على الرؤية عبر ثقوبه الدقيقة. ليس بوضوح لكن بدرجة كافية. رأيت أحدهم يقفز بخطوتين واسعتين ويفتح الباب. بسرعة دلف شابّ آخر وأقفله وراءه.

هتف الجميع بلهفة، لكن بصوت منخفض: «مرحبا راشيل».

راشيل؟

رأيت الزائر الليلي ينزع قبعته ويزيل السالفين (الزائفين؟) الملصقين على وجهه. انسدل شعره الطويل، بل شعرها الطويل. شهقت مرغمًا. إنّها فتاة جاءت متنكّرة في زيّ ذكوري.

رغم قطعة الثوب في فمي كان صوت شهقتي مسموعًا. التفتت راشيل نحوي، ثمّ دار بينها وبين الأربعة حديث هامس سريع لم أفهم منه شيئًا، لكنّه حتمًا عنّي. بدت متوتّرة في حديثها وعصبيةً. في لحظة ما بدا أنّها تتوجّه نحو الباب قبل أن يمسك بيدها أحد سكّان الغرفة ويحادثها بنبرة مترجية. استكانت في النهاية، وتقدّم نحوي

ظلّ أحد الأربعة. أنحى عليّ وضغط حنجرتي، وتحدّث الصوت نفسه السابق وبالوضوح نفسه. «أنت لست هنا. لم تسمع شيئًا ولم تر شيئًا. أخبر الإدارة وسيكون يومك الأخير في الحياة». ضغط حنجرتي أكثر، وسأل: «فهمت؟»، أومأت برأسي فنهض عنّي والتحق بزملائه.

انطلق الخمسة في أحاديث قصيرة مضى بعض الوقت قبل أن تتخلّلها الضحكات وينسحب التوتّر من فضاء الغرفة. عندذاك، بدأت حفلتهم، وشعر عمران بصلابة مزعجة بين ساقيه. بدأ أحد الفتيان يتنهّد وهو يحتضن راشيل من الخلف، وتأوّه المتفرّجون استمتاعًا. لم يملك عمران إلّا أن يستسلم لنهر الذكريات الذي تدفّق بسبب التأوهّات الخافتة ووجد نفسه في فصل اللغة الفرنسية، في ختام سنته الأولى في المدرسة العبرية. كانت إدارة المدرسة محافظة جدًّا. كنّا ملزمين بملابس محتشمة وكانت سياسة المدرسة تقوم على الفصل بين الجنسين. لم تكن الفصول مختلطة، وحتى في المطعم وفي ساحة المدرسة لم يكن مسموحًا للفتيان بالبقاء مطوّلًا رفقة الفتيات. الأمر نفسه كان ينطبق على المعلّمين، لكن حدث في تلك السنة أن ذهبت أستاذة الفرنسية في إجازة أمومة قبل شهر من ختام السنة، واضطرّت الإدارة إلى الاستعانة بمعلّمة بديلة. معلّمة شابّة، فاتنة، متمرّدة، لم تقبل الاستجابة لقانون المدرسة في ما يخصّ الملابس، وكانت تفضّل لبس تنانير بالكاد تصل إلى ركبتيها، وكانت ركبتاها بيضاوين عاليتين تنبضان بالحياة. النظر إليها كان يضاعف دقّات قلوبنا الفتيّة. قاوم عمران طويلًا وفي النهاية استسلم لسحر ركبتي المعلّمة. كانت الحصّة الأخيرة في السنة، وكانت الصلابة مؤلمة بين ساقيه. تجاهل عمران حديث المعلّمة، ولا أذكر شيئًا عمّا كانت تتحدّث عنه، وانشغلت يده تحكّ ما بين فخذيه وهام وعيه يسرح في حقول بعيدة حتى تدفّق ماؤه. تلك كانت المرّة الأولى له.

والآن تدفّق ماؤه مرّة ثانية، في مهجع النوم في المدرسة الدينية، وهو يسمع تأوهّات زملائه وذاكرته تعيد إليه التجربة الأولى بكلّ أحاسيسها. تأوّه عمران بخفوت، والتفت إليّ رفاق الغرفة. أشار أحدهم إليّ وانطلقوا أربعتهم في الضحك. أحسّ عمران بالبلل بين ساقيه، ورأيت راشيل تخاطب الفتيان بلهجة بدت لي أنّها تلومهم، ثم تقدّمت في اتّجاهي وانحنت علي، وطبعت قبلة على شفتي عمران بعد أن نزعت عنه الكيس، وأشعلت فيه الحرائق.

نظرت بجمود إلى ما سطّره تيّار الحبر المتدفّق من القلم. نفضت رأسي محاولًا التخلّص من ذكريات المدرسة عائدًا إلى حديث فرانز. لم أصدّق أنّ فرانز يمكن أن يكذب بخصوص أمر شنيع مثل الهولوكوست. حرّكت رأسي يمينًا ويسارًا رافضًا تصديق ما حكاه.

«حسنا، شكرًا على هذه الحكاية. هذا لا يغيّر شيئًا»، قلت وأنا أنهض واقفًا لأغادر، فأشار لي أن أجلس، وقال: «هذا سرّ واحد فقط. انتظر. لم أبُح لك بالسرّ الثاني بعد»، فجلست مرغمًا.

«هل تعرف من هو صاحب شركة إديسيو دو سابل؟».

«طبعًا. مسيو روجيه سمحون».

أومأت مجيبًا بسرعة عن السؤال البديهي. كان ردّ فعل فرانز ضحكة أخرى، لكنّها هذه المرّة أقلّ صخبًا.

«على الأوراق نعم»، قال فرانز. «لكنّ المالك الحقيقي لدار النشر والمطبعة وسلسلة المكتبات هو إيمانويل كاربون».

في أوّل وهلة لم أنتبه، ثمّ مرّ الخاطر المرعب سريعًا في ذهني، وكدت أهتف بصوت عال لولا أن تداركت نفسي في آخر لحظة: «أنت لا تقصد إيمانويل بن بول كاربون؟».

أومأ فرانز ورسم ابتسامة ساخرة على شفتيه الرقيقتين اللتين تضفيان عليه وسامة شهوانية وجمالًا شيطانيًا.

«مهلًا، مهلًا»، تعذّر عليّ تصديقه. «نحن لا نتحدّث هنا عن بول كاربون الأب الروحي السابق للمافيا الكورسيكية؟».

«بل هو عينه».

«أيّ هراء هذا الذي تحاول إقناعي به؟ ما علاقة عصابات المافيا بالنشر والكتب و...».

انحبس صوتي وتحرّكت يداي بحركات خرقاء في الهواء قبل أن أستردّ أنفاسي مجدّدًا. أمّا فرانز فبقي صامتًا يلعب بالسكّين في الصحن الفارغ من دون أن تفارقه ابتسامته.

«ماذا تعرف عن غسيل الأموال؟»، سأل فرانز بعد أن ترك السكّين وعاد إلى جدّيته.

«غسيل الأموال؟» سألت مستغربًا، فلم يكن استخدام المصطلح شائعًا آنذاك كما أصبح في السنوات التالية.

اعتدل فرانز في جلسته واستعدّ ليلقي على مسامعي محاضرة مطوّلة عن الأموال القذرة وكيف يُجرَى غسلها، لكنّه كان حذرًا بحيث لم يتطرّق لعمليات المافيا الكورسيكية بل أورد نماذج من المافيا الأميركية.

باختصار، وحسبما فهمت منه آنذاك، غسيل الأموال عملية معقّدة تهدف إلى إضفاء الشرعية القانونية على أموال متحصّل عليها بطريقة غير قانونية، لتُدار وتُستثمر بشكل قانوني أمام الملأ. أي، بصيغة أخرى، هي إعادة تدوير الأموال التي حُصل عليها من الأعمال غير المشروعة، في مجالات شرعية بغرض إخفاء مصدرها الحقيقي، كي تبدو في النهاية أنّها من مصدر مشروع. كأن يُفتَتَح مقهى، مثلًا، وتُسَجَّل إيرادات كبيرة تظهر أنّ الإقبال عال على المقهى، حتى لو كان الإقبال منعدمًا. هكذا، تُدفع الضرائب على الإيرادات الوهمية، أموال المخدِّرات التي أودعت كأنّها إيرادات المقهى، بينما يشكّل المبلغ

المتبقّي بعد الضرائب أرباحًا صافية تتوهّم الجهات الحكومية أنّ مصدرها هو إيرادات المقهى.

«تقصد أنّ دار النشر وشركاتها الأخرى مجرّد واجهة للمافيا لإعادة تدوير الأموال وشرعنة مصادرها؟».

«تمامًا. الآن بدأت تفهمني»، قال فرانز ونظر مليًّا إلى ما وراء كتفي. «لكن، لأصدقك القول، كان الهدفُ في البداية مجرّد واجهة لغسيل الأموال، لكن تبيّن لاحقًا أنّ المشروع استثمار ناجح في حدّ ذاته، ويمكن الاستفادة منه بأشكال أخرى، خصوصًا أنّ مسيو روجيه سمحون عميل مزدوج».

«عميل مزدوج؟».

«ذاك سرّ ثالث لا حاجة لك إلى معرفته. وعدتك بسرّين فقط».

«لم أطلب منك أيّ سرّ. ولا أعلم لماذا تخبرني بكلّ هذا».

«حسبتك أذكى ممّا تبدو عليه عزيزي عمران. أنت الآن تعرف أكثر ممّا يجب. هل تعتقد أنّ أصدقاءنا في كورسيكا سيتركونك حيًّا إذا علموا أنّك تعرف سرّهم الصغير؟ كذلك أنت تعرف الآن أنّني لست مجرّد محرّر لا يستخدم يده إلّا لحمل القلم. يمكنني أن أقتل إذا تطلّب الأمر ذلك».

قام فرانز واقفًا وتلحّف معطفه، ثمّ وضع سبّابته ووسطاه على الشيك ودفعه إليّ.

«كن عاقلًا عمران»، ووضع يده على كتفي، «لا أريد أن أخسر صديقًا مثلك، ولا تريد إسرائيل خسارتك. الوطن يحتاج إليك».

ربّت فرانز كتفي وغادر، وبقيت أحملق في الشيك وأنا أقاوم الارتجاف. «كلّ هذا لأجل رواية؟ لا أستطيع التصديق». أخذتُ أكرّر العبارة في نفسي مرارًا وتكرارًا حتى جاء النادل وبدأ يرفع الأطباق. طلبت منه الفاتورة فقال الحساب مدفوع.

طويت الشيك. وضعته في جيب معطفي وغادرت المطعم. بقيت طيلة أيّام أسير مع هذه الورطة. أيّام من الأرق المتواصل، وفي النهاية كان لدي خيار واحد لا غير. مؤكّد أنّني لن أشارك في هذه الجريمة، لكن من العبث أن أضحّي بنفسي في الوقت الذي باع الآخرون أنفسهم. في الحقيقة، لا أملك أن أتحقّق ممّا إذا كان الآخرون قد باعوا أنفسهم أم جرّوا إلى ذلك جرًّا. لقد رأيت قوّة تهديدات فرانز وطبيعتها، ولا شكّ في أنّه قادرٌ من خلالها على إقناع الجميع.

لست أعرف ما سأفعل بخصوص تهديدات فرانز. يجب أن أكشف هذا الفساد الذي ينخر في عالم صناعة النشر، ولو بطريقة مبطّنة. لن أسمح لفرانز وجماعته بالإفلات بما يفعلون.

ولكن، قبل ذلك، سأنهي حياة عيسى العبدي، لأركّز على فرانز وجماعته.

سأجعل إدمون المالح يحسّ بندم فادح. كان يظنّ أنّ مهمّته تنتهي بإخبار الضابط المصري بتحرّكات رجال الموساد والوكالة اليهودية. لقد نجح فعلًا في إقناع موفد الوكالة برغبته في الهجرة، وحين جاء الموعد التحق بآخرين، بأسر كاملة، ذهبت بهم الرحلة من الدار البيضاء إلى مدينة العرائش برًّا، ومن هناك إلى ميناء الحسيمة في مركبين صغيرين متخفّيين تحت جنح الظلام. في العرائش، ترك إدمون رسالة لمشغّله المصري، ثمّ حين التقاه في ميناء الحسيمة، مختبئين في إحدى غرف تخزين أدوات الصيد، أبلغه بكامل تقريره، واعتبر أنّ مهمّته انتهت. خرج من هناك إلى محطّة الحافلات ليبدأ رحلة عودته فجرًا إلى الدار البيضاء، (كيف يعود وحياته مهدّدة بالخطر؟ لم أفكّر في الأمر. غير مهمّ). ولم يعلم إلّا في اليوم التالي بخبر غرق السفينة التي كان يفترض أن تحمل اليهود إلى جبل طارق. شعر إدمون بقبضة فولاذية تعتصر قلبه، وكان قد ظنّ، أوّل ما ظنّ،

أنّ المصريين هم السبب. لا، بل هو السبب. لقد أعطى المصريين التفاصيل التي كانت تنقصهم وقادهم مباشرة إلى السفينة إيجوز، فأغرقوها. لم يستطع التفكير في أيّ احتمال آخر. كان واثقًا في أنّ المصريين قد فعلوها. لا يوجد أيّ تفسير آخر. لام نفسه كثيرًا، ولم يعد قادرًا على استيعاب دوافعه التي دفعته إلى قبول التعامل مع الاستخبارات المصرية. لم يشكّ لحظة في أنّه يخون وطنه بقبوله التعاون معهم. كان يعتبر أنّ اليهود الذين يتنكّرون لوطنهم المغرب ويسعون نحو إسرائيل هم الخونة. لم يفكّر في ما ستفعله الاستخبارات المصرية بالمعلومات التي سيقدّمها لها. في الحقيقة، سأجعله يدرك الآن، أنّه لم يرغب في التفكير في الأمر. سيكتشف الآن أنّ الأمر كان واضحًا، وما حاجة المصريين إلى تلك المعلومات إلّا لوقف عمليات التهجير، ولا سبيل إلى ذلك سوى إغراق السفينة. نعم، لم يفكّر إدمون في ذلك بشكل واع، لكنّه يدرك الآن جيّدًا أنّه في أعماق لاوعيه كان يعرف. سأدفع إدمون نحو إدراك أنّ الطريقة الوحيدة للخلاص هي الاعتراف. الاعتراف للاستخبارات المغربية، ومحاولة إصلاح ما يمكن إصلاحه.

لم يكن جهاز الاستخبارات المغربية، كما هو الآن، قد تشكّل آنذاك. كان هناك مكتب «الكاب 1»، التابع لمديرية الأمن الوطني، الذي كان بمثابة شرطة سياسية. كان المكتب سيّئ السمعة وسط المعارضين السياسيين والصحافيين المشاكسين. لا بديل الآن إلّا أن أدفع إدمون لأن يذهب بقدميه إلى عرين الشيطان، حيث سيدخل ولا يخرج مجدّدًا.

حين خرج إدمون من العمارة، حيث يسكن، اصطدم به رجل ضخم عند البوّابة ودسّ في جيبه ورقة. همّ إدمون بالصراخ في وجه من اصطدم به ثمّ انتبه إلى عملية دسّ الرسالة، وهو أسلوب تواصل

متّفق عليه مع الضابط المصري. كانت الرسالة مقتضبة: «سأعود بعد يومين. حاول ألّا تفعل شيئًا تندم عليه. لسنا مسؤولين. نعتقد أنّهم هم السبب».

«ما هذا الهراء؟» غمغم إدمون ومزّق الرسالة. «هل يقصد أنّ الإسرائيليين هم مَن أغرقوا السفينة؟» دار في خلد إدمون أنّ إسرائيل ستستفيد حتمًا من الحادثة، ربّما أكثر من مصر، لكنّه لا يستطيع تصديق أنّ الحكومة يمكنها أن تضحّي بأربعين يهوديًّا نصفهم من الأطفال. لا، لا يستطيع التصديق. سيرفض إدمون التفكير في احتمال أن يكون الموساد نفّذ العملية وسيصرّ على لوم نفسه. سيعتبر نفسه مسؤولًا عن غرق ذلك العدد الكبير من الأبرياء، ولن تسمح له صرخات الأطفال التي يتخيّلها أن يتصرّف باتّزان. سيصرّ على قراره الذهاب إلى مقرّ «الكاب 1» لفضح مشغّله المصري، ولن يراه أحد بعد ذلك اليوم.

بقيتُ طيلة تلك الأيّام مشغولًا بتهديدات فرانز المبطّنة في عرضه الباذخ إلى أن جاء يوم التصويت. التقينا خمستنا في قاعة اجتماعات مغلقة في فندق ثلاث نجوم يشترك في ملكيته مسيو روجيه جارودي، رجل الأعمال الذي تبرّع بتمويل الجائزة. استنبطت من الملامح المتجهّمة لزملائي الأربعة أنّ حالهم لم يكن أفضل من حالي. افتتح رئيس اللجنة الجلسة وقال باستسلام ظاهر: «أظنّ أنّنا متّفقون جميعًا على رواية اليوم المقدّس؟» هزّ الثلاثة الآخرون رؤوسهم هزّة خفيفة. ولما طال جمودي تحدّث الرئيس: «مسيو المالح؟» رفعت بصري إليه وجلت بنظراتي على بقيّة الزملاء ثمّ قلت بلهجة أردتها أن تجمع بوضوح بين الثقة والجمود واللامبالاة: «نعم، موافق». فتنفّس الجميع الصعداء، وقال الرئيس: «جيّد، لنصوّت الآن على باقي الروايات».

لكنّني لم أكن أنوي تسهيل الأمر عليهم.

إبعاد اليوم المقدّس كان مستحيلًا من دون أن أعرّض نفسي لخطر مجّاني، وبما أنّ الرشوة والتهديد فرضا نفسيهما على الجائزة وأفسدا حيادها، فإنّ الحلّ الوحيد الذي توصّلت إليه هو جعل الاتّفاق على باقي الروايات مستحيلًا، بالتالي، إذا كنت محظوظًا، الوصول إلى إلغاء الجائزة، أو في الأقلّ إعادة تكوين لجنة تحكيم مختلفة لا أكون عضوًا فيها.

«أرشّح أيضًا رواية حرب الكلب»، قال رئيس اللجنة، فغمغم اثنان آخران مؤكّدين إعجابهما بالرواية. تابع الرئيس موضّحًا: «تتناول الرواية تحوّلات المجتمع بأسلوب يجمع بين الواقعية السحرية والخيال العلمي، مع التركيز على تشوّهات المجتمع والنزعة الوحشية التي حلّت محلّ القيم والأخلاق الإنسانية».

رفعت يدي مقاطعًا: «الرواية سيّئة. أوّلًا صفحات البداية مملّة جدًّا، وإذا لم ينجح الكاتب في لفت انتباه القارئ من البداية فسيكون قد فشل. هذه الملاحظة تنطبق أيضًا على الروايات الأخرى. أعتقد أنّه من الغباء أن يسوّد الكاتب، أيّ كاتب، مئة صفحة في الأقلّ بالنثر المملّ قبل أن يبدأ جذبَ اهتمام القارئ». توقّفت لألتقط أنفاسي وأمنع نفسي من التمادي في حدّة الانفعال. «أمّا بخصوص رواية حرب الكلب، فللأسف هي رواية مهترئة. قرأت للكاتب روايات سابقة له وهي مميّزة بحقّ. أمّا هذه فمجرّد محاولة خرقاء لتقليد الروايات الأميركية. الرجل هنا كان منبهرًا بروايات التشويق الحديثة وأراد أن يمزج أنواعًا مختلفة من التصنيفات الحكائية في حكاية واحدة فكانت النتيجة مسخًا يعفّ منه القارئ. الأكثر من ذلك الرواية لا تخلو من أخطاء تقنية لا نراها عادة إلّا عند الكتّاب المبتدئين، مثل الحوارات المفتعلة والحشو في المعلومات المقدّمة بطريقة مباشرة فجّة».

«أتّفق مع مسيو المالح»، قال أحد الزملاء، فسحب الرئيس ورقة جديدة من ملفّه. «حسنًا، حسنًا. لنستبعد حرب الكلب. لديّ أيضًا الوردة هنا وهناك».

لم أستطع المقاومة ونخرت رغمًا عنّي: «حاولت صادقًا من أولى صفحات هذه الرواية إلى آخرها إيجاد ولو نقطة إيجابية واحدة فيها فلم أجد. يمكنني أن أقول بكلّ راحة ضمير أنّ كلّ ما كتب عن هذه الرواية في الصحف هو محاباة شخصية من أصدقاء كاتبها الشاعر».

«يبدو أنّ مسيو المالح لا يعجبه العجب، قال الرئيس ممتعضًا وقد فقد صبره. «لنرى اقتراحاتك إذًا يا ناقدنا المبجّل».

رفعت كتفيّ لامباليًا: «ليس ذنبي أنّني لا أجد رواية تستحقّ التأهّل إلى القائمة القصيرة. ساعة المدينة لا تملك حتى مقوّمات اللغة، وبصراحة لم أستطع تجاوز الصفحات الأولى. لا أعرف ما إذا كانت كاتبتها تملك مهارة الحكي، لكن من دون لغة ولا أسلوب أدبي لا يمكنني الحديث عن رواية. أمّا رواية شاهد القبر فقد بدأت بداية جيدة. التجريب على مستوى الكتابة جيّد، غير أنّ التجريب بطبيعته سلاح ذو حدّين، إذا لم تمسك به جيّدًا فسينحرك. في هذه الرواية كانت الخيوط مترهّلة ولم يقدّم لنا الكاتب أيّ جديد، لا على مستوى الشكل ولا على مستوى المضمون. ليس ثمّة إلّا اجترار لذكريات، نعرفها وصادفناها في روايات كثيرة، واستطرادات متواصلة لا تقدّم شيئًا. يبدو لي أنّها من الروايات التي يكتبها أصحابها قسرًا. أمّا رواية زهور النار...».

قاطعني الرئيس بحدّة أكبر هذه المرّة: «أنت ترى العيب في كلّ شيء. تبحث فقط عن السلبيات ولا يبدو لي أنّه تعجبك أيّ رواية. لم لا تكتب أنت رواية ودعنا نرَ عبقريتك؟».

«لست عبقريًّا، وإن كنت أشير إلى سلبيات كلّ رواية أقرأها فلأنّها لم تشبعني كقارئ. لا أدري ما إذا كنت قادرًا على كتابة رواية أفضل، لكن بصفتي قارئًا أملك الحقّ في أن أكون متطلّبًا وأبحث عن الجودة التي أريد».

«يبدو لي أنّك تنتقد لمجرّد الانتقاد ليس إلّا»، قال الرئيس ضاربًا الطاولة بكفّه، فحاول أحد الزملاء التدخل لتهدئة المناقشة، لكنّ الحدّة زادت وارتفع الصخب حين بدأ الآخرون يدلون بدلائهم. في النهاية، نهض الرئيس غاضبًا وتبعه أحد الزملاء، وانتهت جلسة التصويت النهائية من دون نتيجة، لكنّ المحصّلة النهائية كانت أفضل ممّا توقّعت. بشكل ما وصل الغضب بالرئيس إلى أن يقدّم استقالته من لجنة التحكيم ويشترط إبعادي من اللجنة في حال أرادت أمانة الجائزة أن يتراجع عن الاستقالة. بذلت من جهتي كلّ جهدي لتفشل محاولات الصلح بيننا، وتقرّر أمانة الجائزة في النهاية إرسال رسالة شكر لكلّ الأعضاء، والاعتذار لاضطرارها إلى تشكيل لجنة تحكيم أخرى. علمت لاحقًا أنّ الأمر استغرق منهم أسابيع أطول ممّا يجب، وفي النهاية تقرّر تأجيل الدورة الأولى إلى بداية الموسم الثقافي السنة المقبلة.

هكذا نجحت خطّتي، أو هذا ما حسبته. لكنّ فرحتي بالانتصار لم تدم إلّا قليلًا، ثمّ انتبهت. الناشر قوي بما يكفي للترويج لرواية اليوم المقدّس كيف يشاء. إلغاء الجائزة قد يكون انتصارًا لهم، وخسارة للثقافة الحرّة والإبداع المستقلّ. لقد ساهمت في تخريب فرصة ظهور جائزة محايدة يمكن أن تقف في طريق تمييعهم قيمةَ الأدب والفكر. يا للأسف.

بعد فترة قصيرة من إلغاء الجائزة، التقيت فرانز غولدشتاين. كنت عائدًا من الجريدة حين وجدته عند باب شقّتي. لم أعرف

تحديدًا ما إذا كان ينتظرني هناك قرب الباب، أم إنّه خرج من شقّتي قبيل وصولي. سأدرك الحقيقة لاحقًا.

تسمّرت في مكاني، أمّا فرانز فقد دسّ يديه في جيبَي معطفه الشتوي وتقدّم نحوي ببطء. توقّف بمحاذاة كتفي اليسرى وهمس في أذني فحيحًا باردًا. قال: «لا تعتقد أنّنا لا نعرف ما فعلت. تأكّد أنّك ستندم». ثمّ غادر.

أعترف بأنّني خفت. ارتعبت وارتجفت رغمًا عنّي، وبقيت واقفًا في الرواق فترة لا أعلم كم بلغت، إلى أن بدأ رنين الهاتف يتعالى من داخل شقّتي ليصل إليّ خفيضًا من أعماق سحيقة، ثمّ صار صداه يتكرّر في أذني ويتضخّم حتى لم أعد قادرًا على تحمّله.

جررت قدمي وأولجت المفتاح في القفل ودفعت الباب. أمسكت سمّاعة الهاتف وأنا لا أزال شبه غائب عن الوعي. رفعتها بلامبالاة إلى أذني، وتركت نفسي لأجوبة مقتضبة باردة.

«مسيو عمران المالح؟».

«نعم».

«معك مدموزيل بريدجيت دوبوا، من دار النشر لو فونيتخ».

«مساء الخير آنستي».

«يؤسفنا إخبارك مسيو المالح بأنّ لجنة النشر لدينا لم توافق على روايتك. نتمنّى لك حظًّا موفّقًا مع دار نشر أخرى».

«حسنًا، شكرًا لكم».

«ليلة سعيدة».

ليلة سعيدة؟ ومن أين قد تأتي السعادة! هذه دار النشر العاشرة التي ترفض الرواية. جلست مع جميع مديري تلك الدور، وجميعهم اطّلعوا على صفحات البداية وأبدوا حماستهم لنشرها، ثمّ لم تكن تمضي أيّام قليلة حتى تأتي مكالماتهم الهاتفية بخبر مقتضب عن

الرفض وأمنية فاترة بالعثور على ناشر آخر. كنت أحزن وأغضب من دون أن أفهم سبب رفضهم البارد. اعتقدت بداية أنّ حجم الرواية القصير هو السبب، لكنّ اليوم بعد تهديد فرانز بدأت أعي الأمر. لا شكّ في أنّه تدخّل في الأمر، وما ذلك بعسير عليه.

كان يمكن أن أستسلم وأقرّ بأنّ روايتي لا تصلح للنشر. أعرف أنّني ما زلت مبتدئًا يخطو خطواته الأولى ولا مشكلة لديّ في أن يكون مصير هذه الرواية سلّة المهملات كما كانت سابقتها التي جئت بها من إسرائيل بعد الحرب. لكنّ شكوكي حول تدخّل فرانز غولدشتاين زرعت التحدّي في صدري. لن أستسلم حتى تخرج الرواية إلى النور.

تذكّرت صديقًا قديمًا يملك دار نشر صغيرة مغمورة. عرضت عليه الرواية، وجعلته يقرأ أكثر من نصفها وأنا معه، ثمّ اقترحت عليه المشاركة بنصف تكلفة الطباعة. وافق فورًا وخلال سبعة أيّام كنت أقف معه في قبو المبنى، حيث يشغّل آلات الطباعة، وأمسكت بيدي أوّل نسخة انتهى العمّال من تجميعها.

لم أشعر بذلك الشعور الأبوي الذي يقول الكتّاب أنّهم شعروا به عندما أمسكوا بكتابهم الأوّل، وإحساسهم كأنّهم يحملون طفلهم البكر.

كلّ ما شعرت به هو الانتصار. لقد تغلّبت على فرانز غولدشتاين.

لكن بطبيعة الحال كنت مخطئًا.

كان حفل التوقيع الأوّل بعد أسبوع، في مكتبة صغيرة قريبة من دار النشر. وصلت قبل الموعد بساعة. كنت مشرقًا بالسعادة. بدأت مساعدة صاحب المكتبة في ترتيب الكراسي وتجهيز نسخ الرواية. بدأ القرّاء المتحمّسون للكتب الجديدة يصلون تباعًا، وانشغلت معهم في أحاديث خفيفة ريثما يحين موعد البدء.

جلست أخيرًا وتنفّست بعمق. لم يحضر الكثير من القرّاء، لكن لا مشكلة. هذا متوقّع في البداية. شربت من كأس عصير الليمون، وسعلت لأنظّف حلقي. لكن قبل أن أبدأ كلمة الترحيب بالحضور سمعنا صوت سيّارة تقف بصرير مزعج عند باب المكتبة، وسرعان ما دخل اثنان من رجال الشرطة وخلفهما ضابط يلوّح بورقة في يده.

«يجب إلغاء هذا الحفل فورًا، وإعادة أيّ نسخة بيعَت»، قال الضابط حتى قبل أن تطأ قدماه الاثنتان داخل المكتبة، ثمّ تقدّم نحوي مباشرة. «أنا المفتّش توماس لامبلين. لا يمكنك بيع الرواية حتى يصدر حكم القاضي. سنحجز على جميع نسخ الكتاب هنا وفي مخزن الناشر. هذا إذن المحكمة».

احمرّ وجهي ونهضت بحركة أسقطَت الكرسي الذي كنت جالسًا عليه. أخذت الورقة من يد الضابط بيدين مرتجفتين وبدأت أقرأها قافزًا بين الأسطر.

«اللعنة»، صرخت وأنا أكوّر الورقة. ضربت الطاولة بقبضتي يديّ، وتضبّبت الرؤية أمامي. تبًّا لفرانز غولدشتاين. المحكمة أصدرت قرارًا عاجلًا بمنع بيع الرواية إلى حين البتّ في قضية رفعتها ضدّي سيّدة ما تدّعي أنّني سرقت روايتها ونسبتها إلى نفسي. «اللعنة».

«الآن، لو سمحت مسيو المالح»، قال الضابط وهو يشير لي ويومئ في اتّجاه باب الخروج. «ستذهب معنا إلى شقّتك. لدينا أمر بتفتيشها».

وهل كنت أملك فرصة الرفض؟ تبعته وركبت معه سيّارته. في الأقلّ كان سلوكه معي يتّسم بالاحترام، وأركبني في المقعد المجاور له وليس في الخلف. تبعتنا سيّارة الشرطيين، وقبل الانطلاق لم

تفتني رؤية ملامح الشفقة المرتسمة على وجوه بعض من حضر حفل التوقيع. أقصد مأتم الرواية.

بقيت طيلة الرحلة أصارع أمواج أفكاري، التي تكاد تغرقني. ما كنت قادرًا على التركيز على نقطة معيّنة. كنت فقط أشعر بالاختناق، وبأنّني أغرق. خفّفت إحكام ربطة العنق وفتحت زر القميص العلوي. سألت المفتش لامبلين عمّا إذا كان بإمكاني إنزال زجاج النافذة. أومأ بالموافقة فأنزلت الزجاج قليلًا وتركت الهواء البارد ليمارس سحره عليّ، كما تعوّدت، لكنّه هذه المرّة لم يفلح في أن يخرجني من حالة الاختناق وضيق التنفّس. بقي السؤال رمحًا مغروزًا في قلبي، ماذا سأفعل الآن؟

وصلنا بعد ساعة أو بعد يوم أو بعد أسبوع. صعدت رفقة المفتّش والشرطيين، وحين أولجت المفتاح وأدرته في القفل توقّفت وأدرت رأسي في اتّجاه المفتّش. بقيت صامتًا بضع ثوانٍ أحاول تجميع أفكاري. سألته: «ماذا تتوقّع أن تجد هنا؟» دفع المفتّش الباب ولم يقل شيئًا. جلست على الأريكة القريبة من المدخل، وتركتهم يقومون بما جاؤوا للقيام به. لم يعد في جسدي بقايا قدرة على الوقوف.

«هذا ما جئنا نبحث عنه».

فتحت عينيّ ونظرت إلى المفتّش. رأيت بين يديه مغلّفًا بريديًّا من الحجم الكبير وحزمة من الأوراق.

اللعنة. تذكّرت الآن ذلك المغلّف. قبل شهرين، وصلني بالبريد المسجّل وقد وقّعت على استلامه. إنّه من كاتبة شابّة أرسلت إليّ مخطوط روايتها تطلب رأيي. إنّها الكاتبة نفسها التي رفعت الآن ضدّي قضيّة تتّهمني بسرقة روايتها. لكنّني لم أسرق شيئًا. كان موضوع الرواية التي أرسلتها مختلفًا تمامًا، وهي مجرّد خربشات. مجرّد خواطر مراهقة ليس إلّا.

قمت ومددت يدي لأمسك الأوراق والمغلّف من يد المفتّش، لكنّه سحب الأوراق بعيدًا عن متناولي.

«آسف، لا يمكنك لمسها الآن»، قال المفتّش. لكنّي استطعت أن أقرأ العنوان في الورقة الأولى قبل أن يسحب يده. إنّه عنوان روايتي نفسه، لكنّ الخطّ ليس خطّ يدي.

أحسست بالدوار وتهاويت على الأريكة. الأمر واضح الآن. فرانز غولدشتاين لم يكن ينتظرني أمام باب شقّتي. بل كان داخلها وقد ترك هذه الأوراق في غرفتي داخل المغلّف البريدي الذي أرسلته تلك الكاتبة المغمورة. فهمت الآن أنّها ليست كاتبة بل موظّفة لديه. لقد فعل ما يبرع في فعله دائمًا.

رأيت المفتّش يضع الأوراق والمغلّف في كيس الأدلّة ويسلّمه لأحد الشرطيين، قبل أن يطلب منهما المغادرة، ثمّ جلس جانبي.

«أعتقد أنّك رجل صالح مسيو المالح»، قال المفتّش. «لكنّك، بشكل ما، أغضبت فرانز غولدشتاين». ثمّ قام واقفًا بعد أن ربّت فخذي.

رفعت إليه عينين دامعتين. رأيت ملامحه تتقلّص، ورأيت حزنًا غامضًا يطفو في عينيه.

«لا قبل لك بتحدّي غولدشتاين. أنا نفسي أخفقت في ذلك بكلّ ما أملكه من سلطة»، تنهّد المفتّش. «لا يفترض أن أقول ذلك، ولكن...» عضّ المفتّش شفته السفلى بحثًا عن كلمات ترفض الخروج من شفتيه، ثمّ رفع كتفيه وتنهّد. «نصيحتي الوحيدة، لا تتعب نفسك بتحدّيه، وانس أمر المحكمة وروايتك. غادر فرنسا وأرح نفسك. عد إلى إسرائيل أو عد إلى المغرب».

بدا لي أنّ المفتّش يقاوم آلامًا ما. بدت كتفاه متهدّلتين. لكن، مع ذلك، لم أكن قادرًا على تصديقه. قد يكون صادقًا في ما يقول، وقد يكون فرانز أرسله ليمثّل عليّ هذا الدور.

«شكرًا». ذلك كلّ ما قلته للمفتّش لامبلين قبل أن يغادر.

الآن، لدى القاضي مغلّف بريدي بتاريخ قديم، وقّعت على استلامه بنفسي، ومخطوط روايتي بخطّ تلك الكاتبة، في ما يبدو. لا شكّ في أنّ فرانز حصل على نسخة من روايتي من أحد الناشرين ودبّر هذه الخدعة مع تلك الكاتبة المغمورة، أو الموظّفة لديه أو لدى المافيا. لا أظنّه دليلًا قاطعًا، لكنّني سأحتاج إلى محامٍ بارعٍ ليدحض ذلك الدليل وينهي المحاكمة بسرعة قبل أن تبدأ الصحف تشويه سمعتي، من دون أن تهتمّ لاحقًا بخبر براءتي، الذي لن يمثّل لها أيّ قيمة صحافية. لو لم يكن شمعون مسافرًا لربّما كان بإمكانه مساعدتي.

لكنّ شمعون ليس هنا الآن. قمت لأتّصل بالمستشار القانوني للصحيفة، أطلب رأيه في القضيّة، حين رنّ جرس الباب. من سيأتي الآن؟

طبعًا من غير فرانز غولدشتاين.

«إذن أنت تعرف كيف ترنّ الجرس»، قلت لفرانز الواقف عند الباب. استغربت برودي واللهجة الساخرة التي تحدّثت بها. ابتسم فرانز وتقدّم إلى الداخل غير منتظر دعوتي.

«أخبرتك بأنّنا نعرف ما فعلت، وبأنّك ستندم».

«هل تكبّدت مشاقّ المجيء لتشمت؟ لم أحسبك بهذا الضعف».

ابتسم فرانز، وواصلت دقّات قلبي تسارعها وشعرت باحمرار وجهي وارتفاع حرارته.

«تعجبني قدرتك على القتال عزيزي عمران. أنت يهودي يمكننا أن نفخر به».

«وهـلّ كـلّ يـهـودي تـفـخـرون بـه تـناصبونه الـعـداء وتلفّقون له التهم؟».

«الأمر بسيط عزيزي. يمكننا أن نصلح الأمر بسهولة. سنسحب تلك الدعوى فورًا وستختفي تلك الكاتبة إلى الأبد».

«بسيط؟ بابا فرانز لم يعجبه تصرّف ابنه عمران فشدّ أذنه لتأديبه. هذا كلّ شيء؟».

«لم أعهدك تملك روح الدعابة عزيزي»، انفرجت شفتا فرانز عن ابتسامة ثمّ تحوّلت إلى قهقهة. «نعم، الأمر تقريبًا كذلك».

«ماذا تريد منّي؟» صرخت هذه المرّة. لم أستطع المقاومة.

دسّ فرانز يديه في جيبي معطفه واستدار نصف خطوة في اتّجاه الباب.

«لا شيء. الآن، لا نريد منك شيئًا عزيزي عمران. سنغفر لك خطأك الأوّل. سنكتفي بشدّ الأذن هذا وسنسحب أمر الدعوى. لكن عمّا قريب سنحتاج إليك».

اقترب فرانز وأخرج يده موجّهًا سبّابته نحو وجهي: «ولن نقبل بأن تخذلنا مجدّدًا يا عمران».

يريدني إذًا أن أصير دمية بين أصابعه يفعل بها ما يريد. لا. لن أسمح له.

ضغطت على أسناني بقوّة وتركت مشاعر غضبي تغلّف عقلي. ضغطت بثقلي على أصابع قدميّ ورفعت يدي اليمنى وأمسكت بها سبّابة فرانز ولويت الإصبع إلى الأعلى. صرخ فرانز، وبتزامن مثير، أرسل يسراه بلكمة خاطفة إلى بطني فأخرجت كلّ الهواء من رئتي وارتفعت سنتيمترات عن الأرض وكدت أسقط على ظهري.

تمالكت نفسي من السقوط واندفعت برأسي إلى بطنه. تلقّفني فرانز بيديه بسهولة، وسحبني ليسقطني أرضًا خلف ظهره.

كان يكبرني بحوالى عشرين عامًا. تجاوز الخمسين وما زلت أنا عند حدود الثلاثين. رغم ذلك، ورغم فترة تجنيدي في جيش الدفاع، إلّا أنّ خبراته القتالية من فترة المقاومة الفرنسية، خلال الحرب العالمية الثانية، تبدو أكبر من قدراتي (أم تراه حصل لاحقًا على تدريب معاصر؟). استطاع أن يسقطني أرضًا بسهولة.

«توقّف أيّها الأحمق. لا قبل لك بي»، قال فرانز ولم أهتمّ بكلامه. تظاهرت بمحاولة النهوض ثمّ تركت نفسي أسقط مجدّدًا وخلال ذلك سدّدت ركلة قوية إلى ساقه.

كانت الركلة قوية ومفاجئة، فسقط فرانز على ركبتيه. عندذاك، قمت بسرعة وسدّدت لكمة إلى وجهه. إلّا أنّ حركة قيامي السريعة أخلّت بتوازني فهويت مجدّدًا، لكن هذه المرّة على صدر فرانز. تلاحم جسدانا وانقلبنا على الأرض مرّة، ومرّتين. عندذاك، رأيت المسدّس ينزلق من الجراب الداخلي تحت معطفه، ورآه فرانز أيضًا، وكان هو الأسبق إليه، وأطلق الرصاصة بمجرّد ما وصل إليه، فأحسست بلسعة نارية على فخذي الأيمن، ثمّ...

لا، ليس مجدّدًا.

لقد استيقظت مرّة أخرى في الغرفة البيضاء. تمامًا كما في المرّة (المرّات؟) السابقة.

استيقظت لأجد نفسي في هذه الغرفة، وبعد جولة الاستكشاف الغريبة وجدت الأوراق التي سوّدت سابقًا، وقرأتها. خلال ذلك سكنتني مجدّدًا الرغبة في الكتابة، لكنّني سأكتفي الآن بكتابة هذه الفقرة وسأتوقّف. صار الأمر غريبًا وعليّ أن أفهم ما أفعل هنا وما هذا المكان الغريب. يبدو أن التداعي الحرّ لن يحلّ شيئًا.

شعرت باهتزازات خفيفة استمرّت بضع ثوانٍ، ثمّ انبثقت من فراغ الغرفة ومضة ضوء باهر غشّت بصري، تبعها صوت أزيز هادر

رافقته هزّة ارتجّت لها الغرفة بأكملها. قفزت من مقعدي وتسارعت دقّات قلبي، ثمّ جاءت دفقة أخرى من الضوء الغاشم فأغمضت عينيّ وضغطت جفنيّ بقوّة حتى لا يتسرّب شعاع الضوء إلى حدقتيّ. شعرت بضيق في صدري وتعطّلت قدرتي على التنفّس. سمعت الأزيز الحادّ المتواصل يخترق أذنيّ ويفقدني توازني. بدأت أسقط وأتهاوى ثمّ فتحت عينيّ وشهقت مستسلمًا لإلحاح رئتيّ الجائعة للهواء.

شعرت أوّل وهلة بالضياع ثمّ ساد الارتباك. أين أنا؟ لم أعد في الغرفة البيضاء التي كنت فيها. هذه أيضًا غرفة بيضاء، لكنّها مختلفة. السرير الذي وجدتني مطروحًا عليه مختلف عن السرير الذي استيقظت عليه صباحًا. في أرجاء الغرفة أجهزة وأثاث مختلف. إلى يميني شبحا رجلين سمعت أحدهما يتنهّد ويقول بالفرنسية: «شكرًا دكتور»، وتنهّد مجدّدًا، متابعًا باللهجة المغربية: «الحمدلله. بعد أن مرّت خمس دقائق على توقّف دقّات قلبه خشيت ألّا يعود أبدًا».

سمعت الآخر يردّ عليه: «عليكم أن توقفوا علاج الصدمات الكهربائية. الرجل تقدّم في العمر ولم يعد قادرًا على تحمّل كلّ تلك النبضات الكهربائية الخارجية. حتى لو كان لديه بقية عقل فسيفقده بسبب هذا العلاج القاتل».

بدأت الرؤية تتّضح أمامي أكثر، وفهمت أنّ أحدهما ممرّض والآخر طبيب.

«تعرف يا دكتور، هذا الأمر ليس بيدي. أنا فقط أنفّذ أوامر الطبيب المعالج»، رفع الممرّض كتفيه وزمّ شفتيه، في حين خرج الطبيب وهو يتمتم بالفرنسية كلامًا لم يصلني منه سوى جملة: «هذا جنون».

استدار الممرّض إليّ وربّت كتفي.

«كـدت تـهرب منّا هـذه الـمرّة يا صـديـقـي»، قـال واتّسعت ابتسامته: «كيف تشعر الآن؟».

«أين أنا؟» خرج الصوت خافتًا من فمي الذي شعرت به جافًّا ومتشقّقًا. بـدأت أجـول ببصري، وعيناي تـدوران بحركاتٍ عصبية سريعة، في أرجاء الغرفة التي صارت معالمها أوضح الآن.

أخذ الممرّض طقم أسنان صناعية من كوب ماء على الطاولة جانب فراشي وأراد وضعه في فمي.

«لا تقلق يا صديقي. أنت في المستشفى. ستتذكّر كلّ شيء بعد أن تنام قليلًا وترتاح».

رفضت أن يحشر طقم الأسنان في فمي وأردت الصراخ، غير أنّ عضلاتي كانت متيبّسة وإدراكي مخلخلًا. بالكاد شعرت بقليل من الاتّـزان. حملني الممرّض وأجلسني على الكرسي المتحرّك ودفعني نحو ما يفترض أنّها غرفتي. لم أكن أستوعب آنـذاك ما كان يدور حولي، فقط كنت أسجّل في ذاكرتي كلّ ما تستقبله حواسّي.

الآن، في مكاني هذا، في غرفتي الضيّقة (نعم، البيضاء أيضًا)، أستعيد تلك التفاصيل وأحـاول معالجتها وفهمها. الآن، وحتى لا أصـاب بالجنون عليّ أن أرتّـب أفكـاري. سحبت نصفي التحتاني المشلول واعتدلت مسندًا ظهري إلى ظهر السرير. سحبت دفتري والقلم من تحت الوسادة، وتنفّست بعمق. وحدهما القلم والورقة سيفيان بالغرض. لنبدأ من البداية. أنا نزيل (ذاكرتي المشوّشة تقول أنّني معتقل) في مستشفى للأمراض النفسية، في الدار البيضاء. (آخر ما أتذكّره أنّني كنت في فرنسا، كيف ومتى عدت إلى المغرب؟). أُلزِمْتُ بحصّتين أسبوعيًّا من جلسات العلاج الكهربائي. يفترض، كما يقولون، أنّها أساسية لعلاجي من هرطقاتي الذهانية وهلاوسي العقلية. خلال جلسة عصر الأمس توقّف قلبي. قد يكون السبب

مبالغتهم في رفع مستوى النبضات الكهربائية المسموح بها لحالتي، أو ببساطة هي أحكام السنّ؛ قلبي العليل الذي لم يعد يتحمّل المزيد من هذه الحياة.

حين توقّف قلبي وجدتني في غرفة بيضاء حبيس ذكريات وأفكار وحكايات عشتها. طبعًا، الذاكرة فعلت فعلَها وشوّهت، أو بالأحرى أعادت تشكيل، الكثير من الحقائق حتى صار عصيًّا الفصل بين الواقع والخيال. إلى درجة أنّني، رغم نوم الليلة التالية في حصّة العلاج التي أوقفت قلبي، ما زلت أشعر بالارتباك غير قادر على فرز الحقيقة من الخيال. وإن كنت أقول دائمًا أنّ الفرق بينهما هو في المنظور ليس إلّا. زاوية النظر هي التي تدفعنا إلى التمييز والتصنيف، والقول أنّ هذا واقع وذاك خيال، أو العكس.

أسمع صوت قبضة تلكم الباب ويد تدفعه. يدخل رجل شرطة يلبس بذلة الأمن الوطني لم أره من قبل. يشير إليّ ويسأل: «عيسى العبدي؟» أومئ برأسي بتلقائية والضباب ما زال يغلّف أفكاري. «تعال معي، سيادة المفتّش ينتظرك في مكتب الطبيب». حملقت فيه بضعَ ثوانٍ بنظرات فارغة، ثمّ كتبت ذلك، وسألقي بجثّتي على كرسي المُقعدِين بعد إكمال هذه الفقرة. لكنّ جملة فرانز لا تزال تتردّد في رأسي، تشوّش تفكيري وتصيبني بالبلادة: «مسيو عَمران المالح، سنقدّم لك عرضًا لا يمكن رفضه. مرّر رواية اليوم المقدّس إلى القائمة القصيرة وستحصل فورًا على شيك بعشرين ألف فرنك، وعقد غير مسبوق لنشر روايتك الأولى».

شكر وتنويه

بداية، أشكر صديقي العزيز، المترجم باسل الطباع، الذي تفضل بمراجعة المسودة الأولى من هذه الرواية وأمدني بملاحظات قيمة جدا.

الروائي والمحرر الأدبي علاء فرغلي على مراجعة المسودة الأخيرة.

شكر خاص لفريق العمل في دار هاشيت أنطوان، على عملهم الاحترافي المتواصل، وبالأخص محرّرتي رنا حايك على ثقتها وحماسها.

* * *

كما يجب التنويه إلى أن:

الترجمة العربية لقصيدة «قدس الذهب»، الواردة في الصفحة رقم 46، متاحة وفق رخصة المشاع الإبداعي في موقع «باب الواد». وهذا رابط الصفحة الأصلية: https://www.babelwad.com/ar/the-zionist-song-jerusalem-of-gold

اعتمدت في نقل قصة «الملك اليهودي وسيدي سعيد أكيرّاموش» الواردة في الصفحة 20، والتي نشرها إميل لاوست بالفرنسية عام 1949 ضمن مجلد الحكايات الأمازيغية، على الترجمة العربية التي وردت ضمن كتيب مجلة الدوحة، الصادرة عن وزارة الثقافة والرياضة في قطر، لعدد يناير 2019 تحت عنوان «غزلان الليل (حكايات أمازيغية)»، ترجمة إدريس الملياني.